مِنْ أَسْرَارِ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ
فِي سُورَةِ الانشِقَاقِ

إِعْدادُ:

د. عيسى بن صلاح الرجبي

الأستاذ المساعد بكلّيّة اللّغة العربيّة بالجامعة الإسلاميّة

المقدمة

حمداً لله تعالى على عظيم آلائه، وشكراً له على جزيل نعمه وفيض عطائه، وصلاةً وسلاماً على صفوة رسله وخاتم أنبيائه، إمام البلغاء وسيِّد الفصحاء، الذي أيّده ربه بالمعجزات، وأجرى على يديه خوارق العادات، وكان تاجها وذروة سنامها تلك الحجّة السَّاطعة، والمعجزة الباهرة (القرآن الكريم) المنزّل بلغة العرب، وهم أرباب البلاغة، وصنَّاع البيان فلم يقدروا على محاكاته، ولم يستطيعوا النَّيل منه، ووقفوا أمام بلاغته مبهوتين، وتحقَّق الإعجاز لكتاب الله الكريم، وصدق الله العظيم القائل في محكم التَّنزيل: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ [سورة البقرة]، وبعد.

فقد أفاض علماء الأمّة في الحديث عن الإعجاز القرآنيّ ، وذكروا وجوهاً متعدِّدة لمناط هذا الإعجاز الذي تحدَّى الله به العرب ، إلا أنَّ آكد تلك الوجوه والرُّؤى هو الإعجاز البلاغيّ الذي تميَّز به أسلوب القرآن الكريم كلِّه على ما عداه من بليغ الكلام ، فقد أسبغ الله جلَّ جلاله على نظم هذا الكتاب الكريم عظيم الفصاحة وجليل البيان ، فجاء عالي الشَّأن رفيع المنزلة ، وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلَّم أنَّه قال : "فضل القرآن على سائر الكلام كفضل الله على خلقه " [١].

(١) رواه البخاري في كتاب خلق أفعال العباد والرّد على الجهمية وأصحاب التعطيل : ١٩ ، =

ومن هنا فإنني أردت الإسهام في هذا الميدان العظيم (الإعجاز البلاغيّ للقرآن الكريم) فجاء هذا البحث – بحمد الله وتوفيقه – ليكشف عن الأسرار البلاغيَّة الكامنة في مفردات سورة الانشقاق ولطائف نظم تراكيبها وخصائص تصويرها.

فقد أكثر الله – جلَّ جلاله – في كتابه العزيز من ذِكْر أحوال اليوم الآخر وأشراطه وأهواله واعتنى بتفصيل أحداثه وعرضها لعباده – مؤمنهم ومشركهم –؛ ليعرفوا عظم هذا اليوم وشِدَّته ويعاملوه بما يناسبه ويستعدّوا لكربته .

وقد استكثر القرآن الكريم من عرض تلك المشاهد العظيمة التي تقع في يوم القيامة وما يسبقه وما يكون فيه ؛ لأنَّ أمر البعث والنّشور والحساب والجزاء وأحوال اليوم الآخر من الأمور الغيبيَّة التي كانت موضع تكذيبٍ وإنكار من المشركين ؛ فكان تفصيل القرآن لها من أعظم أسباب رفضهم لدعوة الإسلام كلّه إذ لم تستوعبها عقولهم ولم تستيقنها قلوبهم ، ومن هنا فقد أولى القرآن الكريم المعاد واليوم الآخر اهتمامه واعتنى به أيَّما عناية ، فتنوَّعت أساليبه وتكرَّرت نظومه في الحديث عن هذا الجانب .

وسورة الانشقاق جاءت من أوَّلها إلى خاتمتها للحديث عن هذا الموضوع المهم، فكان اختيارها موضوعاً لهذا البحث انطلاقاً من الشعور بأهمِّيَّة مضامينها في حياتنا خصوصاً في هذا الوقت .

= وأخرجه عبد الله بن أحمد بن حنبل في السنة : ١ / ١٥٠ ، والبيهقي في شعب الإيمان : ٥ / ١٦٥ – ١٦٦ .

وقد كان الدَّافع لهذا البحث رغبتي في استشراف آفاق البلاغة القرآنيَّة المعجزة، واستجلاء الخصائص البلاغيَّة والنِّكات البيانيَّة لآيات هذه السّورة العظيمة التي حثَّ الرسول صلى الله عليه وسلّم على تدبّر معانيها، والتأمّل في أسرار نظمها وروائع بلاغتها، فإن النظم القرآني هو قطب رحى البلاغة وعمودها.

ويرمي هذا البحث لتحقيق جملةٍ من الأهداف العظيمة – بإذن الله – من أبرزها:

١. خدمة كتاب الله تعالى بالتَّفقّه الواعي والتّأمّل المستبصر في أساليبه وتدبّر دلالات نظمه وتصريف بيانه ؛ امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ [سورة النساء] ، وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة محمد] ، وادِّراكاً لفضل الخيريَّة الواردة في وصيَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمَّته : " خيركم من تعلّم القرآن وعلَّمه " (١).

٢. إبرازُ وثاقة الصِّلة بين البلاغة العربيَّة وإعجاز القرآن الكريم ، فالإعجازُ البلاغي أظهر وجوه إعجاز كتاب الله تعالى عند جماهير أهل العلم .

٣. إظهار قيمة علوم البلاغة وعظيم أهمية مباحثها لطلاب العلم عموماً ، ولمن يتعاطى علم التَّفسير خصوصاً .

٤. الرَّغبة في وصل قواعد البلاغة العربيَّة بأبلغ الكلام وأجمله ، وإثراء الدَّرْس

(١) رواه البخاري في صحيحه .

البلاغيِّ بشواهد جديدة ، تُرهف الحسّ، وتُربي الذَّوق، وتصقل الفطرة، وتُنمِّي الموهبة ، وفي اعتقادي أنَّه بمثل هذه الدِّراسات التَّطبيقيَّة تحيا الدِّراسة البلاغيَّة وتزدهر، ونستطيع أن نزيل الجفاف الّذي لحق الدِّرس البلاغيّ في العصور المتأخِّرة.

٥. **توجيه الأنظار إلى عظم أهوال يوم القيامة والكشف عن كروب ذلك اليوم من خلال تأمل جماليات النظم وبدائعه في سورة الانشقاق والتي لم يفرد لها – في حدود علمي – دراسة بلاغية متخصصة ، وهذه الدراسة مكمِّلة لدراسة بلاغيَّة سابقة أقمتها حول بلاغة النّظم القرآنيّ في سورة التكوير ، فهاتان السورتان وإن اتّفقتا في الموضوع والمضمون عموماً إلا أنّ كلاً منهما بحاجةٍ إلى دراسة بلاغيّة متخصِّصة فـ" القرآن الكريم الذي أنزله الله بلسانٍ عربيٍّ مبين تتكرَّر فيه أبواب المعاني التي هي مقاصد القرآن كالحديث عن آيات الله سبحانه والحديث عن القيامة والبعث والنفخ في الصور والأرض جميعاً قبضته والقصص إلى آخره ، وكلّ هذا قد تكرَّر في القرآن العظيم ، وكلّ صورةٍ من هذه الصّور التي تكرَّرت كأنها عالم وحده ولا يمكن أن نجد جملة فضلاً عن آيةٍ يفي غيرها بمعناها "** [1].

(١) الشعر الجاهلي " دراسة في منازع الشعراء " : ٢١ د. محمد أبو موسى .

خطّة البحث:

جاء البحث في أربعة مباحث ، يسبقها مدخل تحدَّثت فيه عن أسماء السورة وعدد آياتها ، وفضلها ، ووجوه المناسبة بينها وبين السورة قبلها ، وتناسب مطلعها مع خاتمتها، وأغراضها.

فأما مباحث البحث فجاءت على النحو التالي:

المبحث الأول: مشاهد الانقلاب الكونيّ الذي يصحب قيام السَّاعة.

المبحث الثاني: أحوال الناس عند العرض يوم القيامة.

المبحث الثالث: الإقسام على تبدُّل أحوال الناس في الدّنيا والآخرة.

المبحث الرابع: توبيخ المشركين على كفرهم .

وأما منهجي الذي سرتُ فيه لدراسة هذه السورة فيقوم على المنهج التّحليلي بتحليل آيات السورة آيةً آيةً ؛ لاستجلاء الخصائص البلاغيَّة الكامنة في مفرداتها وتراكيبها، معتمداً في ذلك على الرّجوع إلى مصادر متنوّعة من أهمِّها كتب التّفسير التي تعتني بالتحليل البلاغيّ ، ومصنفات علماء المتشابه اللفظي والتي عرضت من خلالها لتوجيه أساليب هذه السّورة المتشابهة في النَّظم مع غيرها من سور القرآن الكريم؛ بقصد الكشف عن السّر الكامن في اختيار لفظٍ فيها على آخر، ودقَّته في وضع كلٍّ منها في موضعه الذي يقتضيه النَّظم القرآنيّ، وأنّ إحلال غيره من الألفاظ في موضعه ضرْبٌ من العبث يترتّب عليه فساد المعنى والإخلال بالغرض الذي سيق له اللفظ الكريم .

والحمد لله ربِّ العالمين

مـدخل

أسماء السورة، مكيتها، ترتيبها في المصحف والنزول، عدد آياتها، أغراض السورة ومقاصدها، تناسب سورة الانشقاق مع السورتين قبلها، تناسب مطلع السورة مع خاتمتها

هذه السورة العظيمة لها أربعة أسماء، بعضها توقيفي وبعضها اجتهادي، وغالبها تدور حول انشقاق السماء يوم القيامة الذي افتتحت به السورة ، فقيل هي: سورة الانشقاق، وقيل: سورة ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ﴾، وقيل: سورة ﴿ٱنشَقَّتْ﴾، ووجه المناسبة ظاهر بين اسم السورة ومحورها ، فمحور الحديث فيها عن الساعة وما يتّصل بها من الأهوال التي تتقدّم وتُمهِّد ليوم القيامة ، والانشقاق الحاصل للسماء يوم القيامة أول تلك المقدِّمات ، كما أن في السورة انشقاقاً آخر يتمثّل في انقسام الناس عند العرض إلى قسمين : مؤمنين ينعّمون ، وكفّار يعذّبون ، وقيل : هي سورة الشّفق ؛ للإقسام به فيها في قوله جلّ جلاله : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ۝١٦ ﴾ .

وهي سورة مكية باتفاق العلماء، وترتيبها في تعداد نزول السور الـ (٨١)، وقيل : الـ (٨٣) حيث نزلت بعد سورة الانفطار، وقبل سورة الروم، وترتيبها في المصحف: الـ (٨٤)، وعدد آياتها (٢٥) آية، وقيل: (٢٤) آية، وقيل: (٢٣) آية [١] .

(١) انظر تفسير التحرير والتنوير: ١٢ / ٢١٧، وفتح الباري: ٨ / ٦٩٧، وفي رحاب القرآن =

وأسلوب هذه السورة تتمثَّل فيه خصائص نظم السور المكيَّة من قصر سورتها وآياتها ، وقوة معانيها وشِدَّة جرسها ووقعها وتتابع فواصلها ، وفخامة ألفاظها وجزالتها لتناسب حال أهل مكة – وهم سادة الفصاحة والبيان – بالإيجاز والاختصار دون إطنابٍ ، فضلا عن أن الملائم لمقام الزجر والتهديد هو قِصَر الآيات وقوة الجرس ، ويأتي التركيز فيها على ما يرتبط بالسَّاعة من تغيير وتبديل ، ويعلو فيها صوت التحذير من العذاب يوم القيامة ، ويغلب فيها الأسلوب الخبري مُرسِّخاً مبادئ العقيدة من إثبات البعث والنُّشور ، والجزاء بالجنَّة والنَّار .

فضلها:

وردت في السنة المطهَّرة أحاديث عديدة تُبيّن فضل سورة الانشقاق وتدفع المسلم للتأمّل في معانيها ، وتدبّر أسرار نظمها ، وهي كالتَّالي :

- **أنها من سور المفصَّل [١] التي فُضِّل بها رسول الله على جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أُعطيتُ مكان التوراة السبعَ ، ومكان الزبور المئين، ومكان الإنجيل المثاني ، وفُضِّلت بالمفصَّل " [٢] ، ويقول ابن مسعود ﷺ في فضل سور**

= الكريم: ٦١ د. محمد سالم محيسن، والمكي والمدني في القرآن الكريم: ٧٨ د. محمد الشائع.

(١) سُمِّي بالمفصَّل لقصر سوره ولكثرة فصوله بالبسملة ، وقيل : لقلَّة المنسوخ فيه ، وللعلماء في تحديد سور المفصَّل اثنا عشر قولاً ، أصحّها أنَّه يبدأ من سورة (ق) وحتى سورة (النَّاس) . انظر البرهان في علوم القرآن : ١ / ٢٤٥ للزَّركشي .

(٢) الحديث حسنٌ لشواهده ، انظر تخريجه في كتاب : موسوعة فضائل سور وآيات القرآن : ١ / ١٢٨ – ١٣٠ ، لمحمد رزق طرهوني ، و" السَّبع الطِّوال " هي سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس " ، ومن العلماء من عدَّ سورتي الأنفال وبراءة =

المفصّل: "إن لكلّ شيءٍ سناماً، وسنامُ القرآن سورة البقرة، وإن لكلّ شيءٍ لُباباً ، ولُبابُ القرآن المفصّل " (١).

- **أنها من ثلاث سور حثّ رسول الله على تدبّرها والتفكّر في معانيها ، ويدخل في ذلك التفكر في خصائص نظمها وما اشتملت عليه من براعة في تصوير معانيها باصطفاء ما يلائمها من أصوات ومفردات وتراكيب تدلّ عليه أوفى دلالة ، فقال صلى الله عليه وسلم : " من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنَّه رأي عينٍ فليقرأ ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ و ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١﴾ و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١﴾ " (٢)، والمتأمل لجمال أسلوب بيان هذه الدعوة الكريمة يلحظ أنها بُنيت على أسلوب الشرط المشعر بعموم الحكم وشموله لجميع ما صدق عليه اسم الشرط ، وقد استخدم أداة الشرط " مَنْ " التي تستخدم للعاقل دون غيرها من أدوات الشرط ؛ إشعارا بأن هذا الفضل والسرور مما يجدر بالعقلاء التنافس فيه والمسابقة إليه ، فهو لا يطلب من غيرهم ولا يتأتَّى من سواهم ، وقد أشار المبرد إلى أن**

= سورة واحدةً فجعل سابع الطِّوال براءة ، وأمَّا " المئون " فهي ما ولي السَّبع الطِّوال ، وهي كلّ سورةٍ بلغت مئة آيةٍ فصاعداً ، وأمَّا " المثاني " فهي ما ولي المئين ، وهي كل سورةٍ دون المئين وفوق المفصَّل . انظر البرهان في علوم القرآن : ١ / ٢٤٥ للزَّركشي .

(١) أخرجه الدارمي في سننه : ٢ / ٥٣٩ ، والطبراني في الكبير : ٩ / ١٢٩ ، والبيهقي في شعب الإيمان : ٢ / ٤٨٨ .

(٢) صحَّحه الشيخ الألبانيّ في سلسلة الأحاديث الصّحيحة : ٣ / ٦٩ – ٧٠ ، رقم " ١٠٨١ " ، كما صحّحه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على مسند الإمام أحمد : ٧ / ٢٠ .

أسلوب الشرط بـ " مَن " أعدل الكلام [١]، مع ما في جملة الشرط من طول تشويق نشأ عن أمور عدة، منها: سماع فعل الشرط والذي جاء أمراً محبَّباً تبحث عنه النفوس وتهواه كل القلوب وهو "السرور والفرح" فقال: "من سرَّه"، ثم مجيء فعل الشرط في صيغة الماضي مع أن الأصل أن يكون مضارعاً فيه ؛ تصويراً له بصورة شيء قد وقع وحصل ؛ ترغيباً فيه وحثًّا بليغاً عليه ، ثم الاعتماد على التشبيه : بتشبيه حال المتصوّر – وهو في الدنيا – لعالم غيبي لا يدركه عقل بشر هو يوم القيامة من خلال إمعان فكره وطول تأمُّله في جواب الشرط الذي سيأتي بعد ، بحال الناظر إليه ببصره المشاهد له بحاسّة عينيه بجامع : قوَّة التّصوّر ليوم الفزع الأكبر من خلال هذين الطريقين ، وقد أُدِّي هذا التشبيه بـ " كأنَّ " التي تحمل معنى التأكيد ، وكل ذلك يجعل المخاطبين متشوفين ومتشوقين إلى معرفة جواب الشرط والذي إذا ما ورد – وهو قوله: "... فليقرأ ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ ﴾ "وقع من النفوس موقعاً حسناً واستقرّ فيها وتأكَّد ، والكلام من خلال أسلوب الشرط يجعل النفوس المؤمنة إذا ما تم بالجواب – وقد تطلعت إليه – تعود لتبحث عن وجه تخصيص رسول الله لهذه السّور بالذكر وبهذا الفضل ، ولتجانب ما عساها أن تكون قد لابسته من تقصير في تأمّلها وتدبُّرها ؛ إذ لا شكّ أن المؤمن بالله وكتبه ورسله واليوم الآخر حقّ الإيمان

(١) المقتضب : ٢ / ٥٨

يسرّه أن يتحوَّل الغيب الذي آمن به إلى مرئي مشاهد، أو كأنه مرئي مشاهد تجول العين في أحداثه فيقع السّرور في قلبه لتحقُّق ما وعد به ربّه ومولاه .

وفي الحديث الشريف إشارة إلى خصوصية النظم القرآني القادر على تصوير الغيب وكأنه واقع تراه العين ، وهذا ما يسعى البحث إلى معرفة كنهه ، وتتبع طرائقه في سورة الانشقاق .

أغراض السورة ومقاصدها:

- اتجهت عناية القرآن الكريم في العهد المكي – ومنه سورة الانشقاق – إلى تقرير أصول العقيدة ، ومن ذلك إثبات وقوع اليوم الآخر ، وما يكون فيه من تغيُّر الأجرام العظام "السماوات والأرض"، وما يكون فيه من إحياء الخلق، وإخراج الأموات للبعث والنّشور، ووعظ الناس بأنَّ وراءهم حساباً على أعمالهم التي قدموها في دنياهم، فأهل الصلاح حسابهم سهل ميسرٌّ سيكونون بعده في نعيم مقيم ، وأهل الشقاء والفساد سيكونون في عذاب دائم في دركات جهنم ، وكلّ ذلك ممّا جحده الكفّار ولم يقرّوا به ، وهذه هي طريقة القرآن الكريم في التّدرّج في بناء قواعد الدين في نفوس الناس تقول عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: (إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنَ القُرآن سُورَةٌ مِنْ الْمُفَصَّلِ فِيهَا ذِكْرُ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الْإِسْلَامِ، نَزَلَ الْحَلَالُ وَالْحَرَامُ ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ لَا تَشْرَبُوا الْخَمْرَ ، لَقَالُوا : لَا نَدَعُ

الْخَمْرَ أَبَدًا ، وَلَوْ نَزَلَ: لَا تَزْنُوا لَقَالُوا لَا نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا) [١].

قال الحافظ رحمه الله في بيان أوليات الدعوة: " الدُّعَاء إِلَى التَّوْحِيد ، وَالتَّبْشِير لِلْمُؤْمِنِ وَالْمُطِيع بِالْجَنَّةِ ، وَلِلْكَافِرِ وَالْعَاصِي بِالنَّارِ ، فَلَمَّا اِطْمَأَنَّتْ النُّفُوس عَلَى ذَلِكَ أُنْزِلَتْ الْأَحْكَام ، وَلِهَذَا قَالَتْ " وَلَوْ نَزَلَ أَوَّل شَيْء لَا تَشْرَبُوا الْخَمْر لَقَالُوا لَا نَدَعهَا " وَذَلِكَ لِمَا طُبِعَتْ عَلَيْهِ النُّفُوس مِنْ النَّفْرَة عَنْ تَرْك الْمَأْلُوف " .

- ثم تناولت السورة موقف الكفار من الذِّكر الحكيم ، مع الإقسام الإلهي بأنهم سيلاقون أهوالا عظيمة وشدائد كبيرة، ثم جاءت خاتمة السورة بتوبيخ الكفار على كفرهم وعنادهم وعدم إيمانهم بربهم، مبشِّرة لهم بالعذاب الشديد، بخلاف جزاء المطيعين فسيكون عظيما في الجنان من غير امتنانٍ عليهم، كلّ ذلك جاء في سياق جمل قصيرة قويَّة الجرس سريعة الإيقاع كما هي طريقة السور المكية أو أكثرها.

تناسب سورة الانشقاق مع السورتين قبلها:

موقع سورة الانشقاق متناسب مع السورتين قبلها وهما "الانفطار والمطففين"، فالسور الثلاث المتتالية كلها في الوعيد بيوم القيامة ووصف أهوال الساعة وصفاً بالغاً تنخلع له القلوب عبر مشاهد مفزعة ومترابطة، ففي سورة الانفطار جاء التعريف بالحفظة الكاتبين وبيان إحصائهم أعمال الناس في كتب، وفي سورة المطففين عرّج على مقرّ هذه الكتب: فكتب الأبرار في عليّين، وكتب الفجّار في سجّين، وفي سورة الانشقاق أخذ في بيان موقف عرض هذه الكتب

(١) رواه البخاري في صحيحه (٤٩٩٣) .

يوم القيامة، فمن أخذ كتابه بيمينه فهو من الفائزين الناجين ، ومن أُوتي كتابه بشماله من وراء ظهره فهو من الأشقياء الخاسرين، "فتحصّل الإخبار بهذه الكتب ابتداء واستقراراً وتفريقها يوم العرض " [(١)].

تناسب مطلع السورة مع خاتمتها:

اكتفى السيوطي في الحديث عن وجه المناسبة بين مطلع السورة وخاتمتها بالإشارة إلى ابتداء ذكر حال السماء يوم القيامة في مطلع السورة في قوله تعالى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ﴾، وفي آخرها جاء ذكر السماء في قوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ۝١٩ ﴾، "على قراءة فتح الباء، خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم، مراداً بذلك ركوبه سماء بعد سماء ليلة الإسراء"[(٢)] ، ثم إنّه سبحانه وتعالى قال في نهاية سورة الانشقاق : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ۝٢٢ ﴾ أي يكذبون بيوم البعث الذي يبدأ بانشقاق السماء حيث يتبدّل كل شيء ويتغيّر؛ ولذا "أجمع البلاغيون والنّقاد على أن فواتح سور القرآن الكريم بلغت أعلى درجات البلاغة، وجاءت فاتحة كلِّ سورةٍ في غاية التلاؤم والتناسب مع ما تضمَّنته السورة من أحكامٍ وعظاتٍ وقصص وأمثال" [(٣)].

---

(١) البرهان في تناسب سور القرآن: ٢٠٤ ، وانظر نظم الدرر : ٨ / ٣٦٨ ، وروح المعاني: ٣٠ / ٧٨ .

(٢) مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع : ٧٩ ، والقراءة بفتح الباء هي قراءة ابن كثير وحمزة والكسائي وخلف ، وقرأ الباقون بضم الباء . انظر النشر في القراءات العشر : ٢ / ٣٩٩ لابن الجزري .

(٣) دراسات منهجية في علم البديع : ١٢٥ .

المبحث الأوَّل: مشاهد الانقلاب الكونيّ الذي يصحب قيام السَّاعة:

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ ﴾ .

تصوير مشاهد أحوال يوم القيامة وسيلة من وسائل الترغيب والترهيب في الذكر الحكيم ، وتأتي آيات هذا المقطع لتعرض أحداث المستقبل التي لم تقع بعد في صورة المتحقق المشهود ، لتأكيد حتميّة وقوعها وحدوثها ، وهذه السورة المكيّة القصيرة تتّفق في مطلعها مع مطلع سورتي " التكوير والانفطار " إلا أنها زادت عليهما بذكر تفاصيل جزئيات الحساب والعرض يوم القيامة ، وما يتخلله من حركة وحوار ، مما كان له أثره الكبير والمشوّق في استحضار تلك الأحداث وإيقاظ الحسّ والشعور ليستشعرها .

فقد وصفت الآيات وقتاً عصيباً يشمل الكون كله إبان البعث والنشور ، حيث يتبدل نظام الكون ويخرب العالم الذي يعيش فيه النّاس ، وتتغير أحواله يوم القيامة بعد أن كان في غاية التناسق والجمال، وقمّة الضبط والإتقان؛ استعداداً لفصل القضاء والحساب بين الخلائق، كلّ ذلك عند التَّأمّل جاء في سياق جمل قصيرة قوية الجرس سريعة الإيقاع؛ لتتناسب مع ملابسات يوم القيامة التي تأتي أحداثه سريعة الحركة متتابعة الوقوع .

ولما كان أكثر هذا الاختلال المخيف والاضطراب المفزع السريع يظهر في الأجرام الكبيرة وهي: "السماوات والأرض والجبال والشمس والقمر والنجوم والبحار" فقد أكثر الله من ترداده وتكراره في مطالع سور متعددة،

منها:" التكوير والانفطار والانشقاق"؛ ليعيه الناس ويدركوا خطر ما هم مقبلون عليه، فيُقووا صلتهم بربهم قبل يوم التناد .

وقد بُدء هنا بانشقاق السَّماوات وتفكُّكها وتحلُّل أجزائها بعد قوَّةٍ وتماسكٍ وإحكام في بنائها لا يقدر على إتقان صنعته إلا الله، فتصير واهية خربة؛ هيبةً لله تعالى واستجابةً لأمره.

وتشقُّقها يكون بالغمام وتنزُّل الملائكة منها كما في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴿٢٥﴾ ﴾ [سورة الفرقان] فحين تنصدع السموات يظهر من هذا الصدع غمام يسدّ الأفق ، وقد ورد استعمال الانشقاق مع السماء في أهوال يوم القيامة في أربعة مواضع : اثنان – تقدّم ذكرهما – في سورتي الانشقاق والفرقان، والآخران هما قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الرحمن] ، وفي قوله تعالى : ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ ﴾ [سورة الحآقة]، والانشقاق معناه: انفكاك ما كان على شدة الالتئام ، وأصله يدلّ على انصداعٍ بائن [1].

وقد جاء فعل الانشقاق هنا مسنداً إلى غير فاعله على المطاوعة ﴿ٱنشَقَّتْ﴾ أي حين يشق السماء شاق فتنشق ، ومثله بعض الأفعال المصوّرة لأحداث يوم القيامة تأتي في القرآن الكريم على صيغة المطاوعة " انفعل " الدال عند علماء التصريف على قبول الأثر ، وذلك فيما يظهر للعيون كالقطع

(١) انظر : لسان العرب : ٣ / ٤٥٧ شقق .

والجذب والكسر [١] ، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة التكوير] ، وقوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ ﴾ [سورة الانفطار] ؛ دلالة على سرعة التأثر والاستجابة وقبول أمر الله تعالى " كن " قال تعالى : ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾ ﴾ [سورة الأنعام] ، فهي متلائمة ومناسبة لسياقها ، إذ عقد الكون كله ينفرط في لحظة واحدة هي لحظة البدء فيه طواعية لأمر الله تعالى مصداقاً لقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ ﴾ [سورة النحل] ، وقوله تعالى : ﴿ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة القمر] .

وفي تنوُّع الصيغ وتغاير الألفاظ في التعبير عمَّا يحدث للسماء في أهوال يوم القيامة بين الانشقاق في سورة الانشقاق ، والفَرْج بمعنى التَّشقُّق في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ ﴾ [سورة المرسلات] ، والكشط في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة التكوير] ، والانفطار في قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾ [سورة الانفطار] ، وفي قوله تعالى : ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾ [سورة المزمل] ، وكلّها تتحدّث عن موقفٍ واحدٍ ، براعةٌ في العرض ، وتفنّنٌ في استعمال المترادف تملأ نفوس الناس على اختلاف طبقاتهم

(١) انظر شرح الشافية : ١ / ١٠٨ .

هيبة ورهبة ، وتزيد من هول الموقف وفظاعة الحدث وجسامة الخطب ، كما أن في ذلك دفعاً لثقل وسآمة تكرار اللفظ الواحد .

ويمكن القول أيضاً : إن تنوُّع التعبير وذِكْر القرآن الكريم له مراراً جاء تبعاً لتنوُّع مشاهد اضطراب السماوات يوم الفصل ، وتعدّد مراحل اختلال نظامها في ذلك اليوم الطويل وصولاً إلى انهيارها ، فهي أوَّلاً تضطرب وتتحول إلى سائلٍ متنوِّع الألوان والأشكال وصفه تعالى بقوله: ﴿ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ ﴾ [سورة المعارج] ، فشبَّه السماء وقد تذاوبت واسودَّت يوم القيامة بالمهل " وهو درديّ الزَّيت المغليِّ وحثالته التي تبقى في أسفله " بجامع : اللون والهيئة المتحلِّلة ، وقيل : المهل : ما أذيب من النحاس أو الفضة أو الرصاص [1].

كما جاء تصويرها وهي ذائبة سائلة على تشبيهين في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة الرحمن] ، فشبَّه تلوّن السماء يوم القيامة بالفرس الوَرْدة " تكون في الربيع وردة إلى الصفرة ، فإذا اشتد البرد كانت وردة حمراء ، فإذا كان بعد ذلك كانت وردة إلى الغُبرة .. ثم شُبِّهت الوردة في اختلاف ألوانها بالدُّهن واختلاف ألوانه ، ويقال : إن الدِّهان الأديم الأحمر " [2] ، وقال ابن كثير : " أي تذوب كما يذوب الدردي

(١) انظر جامع البيان في تفسير القرآن : ٢٩ / ٧٣ للطبري ، وتفسير القرآن العظيم : ٤ / ٤٢١ لابن كثير.

(٢) معاني القرآن : ١ / ٢٣٥ للفراء ، وانظر الجمان في تشبيهات القرآن : ٢٩٢ ، وسورة الرحمن وسور قصار : ٩٣ د. شوقي ضيف .

والفضة في السبك ، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها ، فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء ؛ وذلك من شدّة الأمر وهول يوم القيامة العظيم " [١].

ثم تدور السماء بالخلائق دوراناً سريعاً يقلب أعاليها على أسافلها فتنهار جوانبها وتتصدع من نواحيها وهو ما صفه الباري – جلَّ جلاله – بقوله : ﴿ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ ﴾ [سورة الطور].

ثم يبلغ الهول منها كلّ مبلغ فتنفطر ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾ ﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ ﴾ ، إذ الانفطار أسبق من الشَّقِّ وأقلّ ، ومادته فيها دلالة على الابتداء يقال : فطر ناب البعير إذا شقّ اللحم وظهر ، وفطر النبات عند أول طلوعه وشقه الأرض ، وفطر الأمر ابتدأه وأنشأه [٢].

ثم تنصدع السماء وتنشقّ شقوقا بائنة وفروجاً ظاهرة ، وقد أسهمت قوة جرس الكلمة عند النّطق بها ﴿ ٱنشَقَّتْ ﴾ بالإيحاء بقوّة الصّدع الحادث فيها وتفظيع هوله ، ولعل ترتيب نزول السورتين " الانفطار ثم الانشقاق " يدل لأسبقية انفطار السماوات ثم انشقاقها؛ إذ سورة الانفطار هي الثمانون في ترتيب ما نزل بمكة، وسورة الانشقاق هي الحادية والثامنون في ترتيب ما نزل بمكة، ومقدار هذا الانشقاق جاء تصويره بتشبيه بليغٍ في قوله تعالى: ﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ ﴾ [سورة النبأ]، فالفتح هنا مفسّر بالشّقّ، " أي فصارت

(١) تفسير القرآن العظيم : ٤ / ٢٧٧ .

(٢) انظر : لسان العرب : ٥ / ١٤٠ " فطر " ، والقاموس المحيط : ٢ / ١٥٧ " باب الراء – فصل الفاء " .

شقوقها لسعتها كأبواب، أو فصارت من كثرة الشقوق كأنّ الكلّ أبواب" [1].

وتنكير المشبه به ﴿ أَبْوَابًا ﴾ يوحي بالكثرة ، فالسماوات لكثرة الشقوق فيها لنزول الملائكة منها صارت كأنها ليست إلا أبوابا مفتّحة ، وإيثار التعبير بالفتح " للإشارة إلى كمال قدرته تعالى حتى كان شقّ هذا الجرم العظيم كفتح الباب سهولة وسرعة " [2] .

وإذا كان هذا حال السماوات السبع الشداد انفطاراً وانشقاقاً على عظمة بنائها وشدّة إحكامها وتماسكها ، فما ظنّك بسواها من مخلوقات الله تعالى الضعيفة ! .

ولمَّا كان أمر الله نافذاً لا رادَّ له قال تعالى بعدها: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أي سمعت أمر ربها فقبلته وأطاعته وانقادت له على أتمّ وجه، وفعل "أذن" مشتق من اسم جامد وهو اسم الأُذن آلة السمع ، وهو يأتي في القرآن أيضا بمعنى "العلم"، والتقارب بينهما (السمع والعلم) كبير، فإنه بالأُذن يقع علم كلّ مسموع، والتَّعبير بـ "الإذن" فيه إيحاءٌ بتمام الإصغاء وعظيم الاستماع من المأمور " السماء " إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع سبحانه وتعالى ، فهي " فعلت في انقيادها لله حين أراد انشقاقها فعل المطواع الذي إذا ورد عليه الأمر من جهة المطاع أنصت له وأذعن ولم يأب ولم يمتنع " [3].

(١) روح المعاني : ١٥ / ٢١٢ .

(٢) روح المعاني : ١٥ / ٢١٢ .

(٣) الكشاف : ٤/٧٢٦ .

وإيثار التعبير بالربوبية ﴿ لِرَبِّهَا ﴾ مع الإضافة إليها في هذه الآية ونظيرتها بعدها ؛ " للإشعار بعلة الحكم "[١] ، فهو جلَّ جلاله المخترع لها والمدبّر لجميع أمورها ، وأنه على مقتضى حكمته جل جلاله ، و " لما يُؤذن به وصف الرب من الملك والتدبير "[٢]، ولتشريف المضاف " السماء والأرض " بإضافته إلى المضاف إليه ليكتسب منه بسبب هذه الإضافة الشرف والأهمية .

وزيادةً في تأكيد معنى استماع السماء لأمر ربِّها وطواعيتها له عطف فعلَ الحقيقة ﴿ وَحُقَّتْ ﴾ على فعل الأذن ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ ، فالسماوات – وإن عظم سمكها واشتد خلقها وطال زمان رتقها – حقيقةٌ بأن تستجيب وتنقاد لما تُؤمر به من ربها فتفعله دون تمنُّعٍ منها ، فهي مجبولة على ذلك ، ومخلوقة من مخلوقاته تعالى لا تخرج عن سلطان قدرته وقهره ، وليس لها من الأمر شيء ؛ إذ كلّ مربوب حقيق بالانقياد لربّه، وحقُّ هذه الآية كلها ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ۝٢ ﴾ عند أبي السعود " أن تكون اعتراضاً مقرِّراً لما قبلها لا معطوفةً عليها " [٣] ؛ لأنها وقعت بين شرطين متّصلين معنى ، الأول ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ﴾ والثاني ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ ﴾ .

ولما كان العالم العلوي أشرف وأعظم مكاناً ومكانةً من العالم السّفلي بدأ به ، ثم انتقل إلى العالم الأرضي فذكر اختلال نظام الأرض التي سيقف عليها

(١) تفسير أبي السعود : ٩ / ١٣١ .

(٢) التحرير والتنوير : ١٢ / ٢١٩ .

(٣) تفسير أبي السعود : ٩ / ١٣١ ، وانظر التحرير والتنوير : ١٢ / ٢١٩ .

الخلائق للحساب ، وهي قسيمة السماء فقال تعالى : ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾ فهي بعد استدارتها وتكويرها تُوسَّع وتُزاد سعةً ومساحة بتشققها بالزلازل وبروز أجزاء من باطنها إلى سطحها حتى تصير إلى الاستطالة من مدَّه بمعنى " أمدَّه " أي زاده ، أو تُسوَّى فلا يبقى عليها جبل إلا اندكَّ ، ولا بناء إلا هُدَّ ودخل فيها كما يمدّ الأديم ويبسط فتزول انثناءاته ، كما قال تعالى: ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ ﴾[سورة طه].

وللعلماء في إعراب كلمتي ﴿ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ في قوله تعالى : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ ﴾ ، ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ ﴾ وجهان :

البصريون يرون أنهما فاعل لفعل محذوف يفسّره ما بعده ، وتقديره : " إذا انشقت السماء انشقت .. وإذا مدَّت الأرض مدَّت " ، وعليه فإنَّ الفعلين حُذِفا تخفيفاً لعدم اللبس ، ورغبةً في عدم التِّكرار ، وإنما دعاهم لهذا التقدير اختصاص ﴿ إِذَا ﴾ بالدخول على الأفعال .

والكوفيون يرون أنهما مرفوعان بالابتداء ، وعليه فإذا أُعربا مبتدأ ، ثم جاء الفعل بعدهما فإنَّه يحمل ضمير المبتدأ ، وهو ضمير يعود على السماء والأرض، فيكون في الكلام تقوية لمعنى فعل الانشقاق والمَدِّ ؛ لأنَّه أسند مرّتين: " مرة باعتباره خبراً ، ومرة باعتباره فعلاً أُسند إلى ضمير المبتدأ " ، وتكرار الإسناد يقوّي الفعل ، ولذا فإنّ نظم الآيتين بتقديم الاسم على أنَّه مبتدأ أبلغ من تأخيره فيما لو قيل : " إذا انشقت السماء .. إذا مُدَّت الأرض " ؛ لأن التَّعبير بتقديم الاسم على فعله يُعطي المعنى قوَّة ووكادة يعرى منها التَّعبير فيما

لو خلا من التَّقديم بمجيئ الفعل مقدَّماً على الاسم ، يقول الطاهر ابن عاشور : " وقدّم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ﴾ دون أن يقال : " إذا انشقت السماء " ؛ لإفادة تقوّي الحكم وهو التعليق الشرطي ، أي إن هذا الشرط محقق الوقوع ، زيادة على ما يقتضيه ﴿ إِذَا ﴾ في الشرطية من قصد الجزم بحصول الشرط بخلاف ﴿ إن ﴾ .. والقول في جملة ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ۝٣ ﴾ مثل القول في جملة ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ﴾ في تقديم المسند إليه على المسند الفعلي "[1] .

وبُني الفعل ﴿ مُدَّتْ ﴾ لما لم يسم فاعله لدواعٍ بلاغيَّة عدَّة يمكن إجمالها في التّالي :

- الحرص على الإيجاز والاختصار، فالسامعون يعلمون بالضرورة أن الفاعل الحقيقي للمَدِّ يوم القيامة هو الله تعالى ، فهو حدث يستحيل أن يُتصوّر من يقوم به غيره أو يوجد من يشاركه فيه لاختصاص الفاعل بالفعل .
- مع ما فيه من الدلالة على تعظيم الفاعل ، وأنه متعيِّن في نفسه مستغنٍ عن ذكره ، إذ لا يذهب الذهن إلى غيره جلّ جلاله ؛ لليقين والجزم بأن مثل هذه الأحداث العظيمة لا يقدر عليها سوى الله تعالى ، فالحدث إذا كان مما ينفرد به الله عز وجل فيكفي أن يذكر ليقترن في الذهن على الفور صورة الفاعل بقدرته وتفرّده ومكانته ، فتَرْكُ ذكر الفاعل أبلغ من ذكره ؛ لأنه يدل على نفي المماثلة ، وفي ذلك تعظيم له .

(١) التحرير والتنوير : ١٢ / ٢١٨ .

- **والبناء للمفعول يوحي بالنفاذ وسرعة الوقوع وسهولته قال البقاعي: " وأشار بالبناء للمفعول ﴿مُدَّتْ﴾ إلى سهولة الفعل فيها عليه سبحانه وتعالى وسرعة انفعالها ، مع كونه أعجب من انشقاق السماء فإنّه ربّما كان في الشيء لوهيه من تطاول مرور الزّمان عليه بخلاف المَدِّ " [1].**
- **وذهب بعض المعاصرين إلى أنّ ترك ذكر الفاعل في هذه الآية وأمثالها " لتركيز الاهتمام بالحدث بصرف النظر عن محدثه " [2] ، ولو قيل : " لتركيز الاهتمام بالحدث بعد العلم بمحدثه " لكان أليق ؛ لأن النظر لا يُصرف عن الخالق – جلَّ جلاله – المَصرِّف لهذه الأحداث العظام .**
- **وفيه أيضاً جمال في التنغيم الصوتي باطراد فواصل آيات هذا المقطع وتوافقها على حرفٍ واحدٍ هو التَّاء الساكنة؛ إذ الفاصلة هي مركز الثقل في الكلام، "وتلك ميزة فنيّة أن تأتي اللفظة لتؤدّى معنى في السّياق، وتؤدّي تناسباً في الإيقاع دون أن يطغى هذا على هذا، أو يخضع النظم للضّرورات"[3].**
- **وقد جاء على نسق هذه الآية ببناء الفعل للمفعول آيات عدّة تتعلّق بوصف حال الأرض رَجّاً وزلزلة يوم القيامة ، منها قوله تعالى: ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴾**

(١) نظم الدّرر : ٨ / ٣٦٨ .

(٢) انظر التفسير البياني للقرآن الكريم : ١ / ٨٠ – ٨١ ، والإعجاز البياني للقرآن : ٢٤٢ وكلاهما لـ د. عائشة عبد الرحمن ، ومن بلاغة القرآن : ٣٠ لأحمد بدوي .

(٣) التصوير الفني في القرآن الكريم : ٨٦ سيد قطب .

[سورة الواقعة: ٤] ، وقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ [سورة الزلزلة] .

- ويلزم من بسط الأرض يوم القيامة ومَطِّها أنها ترمي بما في جوفها من عظام الموتى وأجسادهم ، وتخرج كنوزها وأموالها إلى ظاهر سطحها قال تعالى بعدها: ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا ﴾، والفعل " ألقى " من الإلقاء وهو طرح الشيء ورميه حيث تراه ، وجمال التعبير بهذا اللفظ بما يحمله من استعارة تتجلّى فيها قدرة الله وعزّته التي انقادت لها المخلوقات ومنها الأرض على ما فيها من صلابة وثخانة وكثافة فتقذف ما في بطنها قذفاً وتخرجه سريعاً ، قال عنها الشّريف الرّضي: "وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾ وهذه استعارةٌ، والمرادُ بها بعثُ الأموات ، وإعادة الرفات ، فكأنَّ الأرض كانت حاملاً بهم فوضعتهم، أو حاملة لهم فألقتهم، فكانوا كالجنين المولود، والثقل المنبوذ"[1] .

وزيادةً في تأكيد معنى إلقاء الأرض وإخراجها لما في جوفها عطف فعلَ الخلوِّ على فعل الإلقاء فقال تعالى : ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ ، فهي تخلو غاية الخلوّ حتى لا يبقى في باطنها شيء ، وتتبرَّأ إلى الله منهم متخلّية عنهم إلى ربهم ليُنفِّذ فيهم أمره ويحاسبهم .

وجاءت مادة الفعل على صيغة " تفعّل " ؛ لما تشي به من الدّلالة على تكلّف الفعل ، فالأرض " خلت غاية الخلوّ حتى لم يبق شيء في باطنها ، كأنها تكلّفت أقصى جهدها في الخلوّ ، كما يقال : تكرّم الكريم ، وترحّم الرّحيم ،

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٣٦١ .

إذا بلغا جهدهما في الكرم والرّحمة وتكلّفا فوق ما في طبعهما "[1].

والمقام مستدعٍ ذلك التأكيد مع الجاحدين والمنكرين للبعث والنّشور من كفار مكّة وغيرهم المخاطبين بهذه الآيات البيّنات .

وإسناد فعل الإلقاء والتَّخلِّي إلى الأرض مجاز عقلي لملابسة المكانية ، حيث أسند الفعلين إلى الضمير العائد إلى الأرض ، وهي ليست فاعلة حقيقيَّة لهما ، إذ ليست لها إرادة ولا تقدر على أن تخرج الكامن في بطنها من الموتى والكنوز وتتخلَّى عنه ، ولكن إذا حدثت فيها الحركة العنيفة والاضطراب الشديد بقدرة الله وأمره ظهر ما كُنِز فيها وما أُودِع في باطنها من الموتى ، ومثله في النسبة المجازية في مقام وصف حال الأرض يوم القيامة قوله تعالى : ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ ﴾ [سورة الزلزلة] ، فعبَّر عن الموتى الذين في بطنها بـ " الأثقال " على سبيل الاستعارة ، تشبيهاً بالحمل الذي يكون في البطن ؛ إذ الحمل يسمّى " ثِقْلاً " ومنه قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّآ أَثْقَلَت ﴾ [سورة الأعراف : ١٨٩] ، ثم أسند فعل الإخراج إلى الأرض يوم القيامة على سبيل الإسناد المجازي ، والأرضُ مما لا يتأتّى منها فعل ؛ إذ ليست بذات إرادة فتفعل ذلك ، وهذه هي القرينة المانعة فيكون إسناداً غير حقيقيّ ، يقول الشيخ عبد القاهر عنه : " وهذا الضرب من المجاز كثير في القرآن .. فمنه قوله تعالى: ﴿ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ ﴾ .. أثبت الفعل لما لا يثبت له فعلٌ

(١) الكشاف : ٤/٧٢٧ .

إذا رجعنا إلى المعقول على معنى السبب وإلا فمعلومٌ أن الأرض لا تُخرج الكامن في بطنها من الأثقال ، ولكن إذا حدثت فيها الحركةُ بقدرة الله ظهر ما كُنِز فيها وأُودِع جوفَها " [١].

والتعبير المجازي في كلتا الآيتين أسبغ الحياة على الجماد " الأرض " وصوَّرها بصورة القادر الذي يُلقي ويخرج شيئاً كامناً في جوفه ويتخلّى عنه ويتبرَّأ منه ، مع ما يوحي به من المبالغة والإيجاز فالأرض لن تبقي في باطنها شيئا ؛ لأنها هي التي تقذف بنفسها كل ما انطوى في طياتها ،كما أشعر بقوة مدّ الأرض وشِدَّة زلزلتها ورجِّها حتى إنها لتلفظ ما في جوفها وتلقيه وتطرحه على ظهرها وتتخلَّى عنه إن كان من البشر. وأما إن كان من الكنوز والأموال وحطام الدنيا فإنه يظهر في صورة المنبوذ المبتذل الذي لا يلتفت إليه أحد ، ولا يعيره أحد أدنى اهتمام وقد كانوا في الدنيا يتقاتلون ويتكالبون عليه ، مما يدل على عظيم تلك الأهوال والشدائد يوم القيامة ، فضلاً عن أنه مشعر بيُسْر أمر البعث وأنه لا يُعجز الله تعالى ، فما هو إلا أن تُلقي الأرض طواعية ، وتُخرج ما أُودع في باطنها تلقائيا بأمر الله تعالى ، وهذه ظاهرةٌ بيانيَّةٌ مطّردة في التعابير القرآنية عن أحداث اليوم الآخر : وهي أن القرآن الكريم يصرف الحدث عمداً عن مُحدثه ، فلا يُسنده إليه ، وإنما يأتي به مسنداً إلى غير فاعله على المجاز كقوله تعالى هنا : ﴿ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ ﴾، وقوله: ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ ﴾ " تقريراً لوقوع الأحداث في طواعيَّة تلقائيّة ؛ إذ الكون كله مهيّأ للقيامة على وجه

(١) أسرار البلاغة : ٣٨٦ " بتصرف " وانظر: مفتاح العلوم : ١٨٧، والإيضاح مع البغية : ١/ ٦٦، والمطول : ٦٣ .

التسخير ، والأحداث تقع تلقائيًّاً لا تحتاج إلى أمرٍ أو فاعل " ، أو يورده على البناء لما لم يسم فاعله كما في مدِّ الأرض هنا في سورة الانشقاق ﴿ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴾ وقوله : ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾ .

ولما كان البيان النبوي تالياً في الفصاحة والبلاغة للبيان الإلهي ومفسِّراً له فمن الجميل القول: إنَّ رسول الله ﷺ قد أسهم أيضا في رسم هذا المشهد الغيبي الذي يقع في ختام الحياة عند قيام الساعة ، وذلك بتصوير متاع الدنيا الذي يتكالب الناس عليه بصورة كريهة قبيحة يشمئز منها الطبع فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " تقيء الأرض أفلاذ كبدها أمثال الأسطوان من الذهب والفضة ، فيجيء القاتل فيقول : في هذا قَتَلت ، ويجيء القاطع فيقول : في هذا قَطَعتُ رحمي ، ويجيء السارق فيقول : في هذا قُطعت يدي ، ثم يدعونه فلا يأخذون منه شيئاً " [1].

فصوَّر رسول الله ﷺ الأرضَ وهي تخرج وتلقي ما في بطنها من الأحمال والكنوز النفيسة التي يتقاتل الناس ويسرقون ويتقاطعون من أجلها بصورة شخص غثيان يطرح من فمه ما يؤذيه حتى يقيء شعبا وقطعا من كبده، وإذا كانت " أفلاذ الكبد " لا تكون إلا للبعير فيكون صوَّرها بصورة بعير يدسع كبده ، وذلك مما تغثى له النفس وتنأى عنه جانبا ، ثم حذف المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه بنسبة القيء وأفلاذ الكبد للمشبه " الأرض " على سبيل الاستعارة المكنية التي شخّصت الأرض بصورة إنسان أو بعيرٍ حيٍّ ، وممّا قوّى الصّورة أنه

(١) رواه مسلم في صحيحه ، رقم الحديث (٦٢) ، ٢ / ٧٠١ .

لم يكتف بالقيء في وصف الأرض عند إخراجها لكنوزها وما في جوفها حتى زاد بجعل القيء وصل لحدِّ إخراج " أفلاذ الكبد " ؛ للمبالغة في ذلك الإخراج والإظهار حتى لم يبق في بطنها باقية ولم يخفى منها خافية ، وذلك كما يقول القائل : " قد تقيَّأ فلان كبده " إذا أراد المبالغة في وصفه باستيعاب جميع ما في جوفه حدًّا بلغ معه شعب الكبد وقطعها ، مع ملاحظة أنه خصّ شعب الكبد من بين ما يشتمل عليه البطن وهي من أشرف أعضاء الإنسان ومن أطايب لحم الجَزور ، وكذلك هي الكنوز النفيسة والمعادن الثمينة من أنفس وأثمن ما في جوف الأرض ، فما أعظمه من هولٍ تتخلّى فيه الأرض عن أنفس ما في بطنها ولا يلتفت الناس إليه لانشغالهم بما هو أعظم منه .

ففعل القيء " تقيء " في الحديث الشريف يقابله في الآيتين الكريمتين الفعلان ﴿ وَأَلْقَتْ وَأَخْرَجَتِ ﴾، وزيادة الفائدة في المعنى المراد المُفادة من قوله: " أفلاذ الكبد " في الحديث الشريف يقابله قوله تعالى: ﴿وَتَخَلَّتْ ﴾ .

وكرّر مع الأرض ما كرّره مع السماء فقال تعالى: ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا ﴾ أي سمعت أمر ربها وأطاعته في امتدادها وإلقاء ما في بطنها وتخلِّيها عنه، ﴿وَحُقَّتْ ﴾ أي وحقّ لها أن تفعل ذلك نظراً لعظم القدرة الرّبانيَّة ، فما هي إلا مخلوق من مخلوقاته سبحانه لا تخرج عن أوامره ، " وحقّ الجملة (في الموضعين) أن تكون اعتراضاً مقرِّراً لما قبلها لا معطوفة عليها " [١].

وبناء الفعل ﴿وَحُقَّتْ ﴾ لما لم يسم فاعله في الموضعين إيجاز للعلم به،

(١) تفسير أبي السعود : ٩ / ١٣١ .

وتقديره : " هي" يعود إلى السماء في الأولى ، وإلى الأرض في الثانية .

وذهب بعض البلاغيِّين والمفسرين إلى أنَّ في قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ في الموضعين استعارة حيث جعل للسَّماء والأرض أُذُناً واستماعاً، وهما جماد لا يتأتَّى جريان هذه الأفعال منهما ، فالاستماع ليس من شأن السماء والأرض ، فهما لا يسمعان لعدم اتِّصافهما بحاسّة السمع فيتحتَّم تأويل الإِذْن هنا من خلال المجاز بتشبيه طاعتها وانقيادها لأمر الله بإذنها لربها واستماعها وإجابتها لما يأمر وتحقيقه ، وممَّن ذهب لذلك العزّ بن عبد السلام فقد استشهد بهما على النَّوع التَّاسع والخمسين من مجاز التَّشبيه – ولم يسمّه – وقال : " قوله تعالى : ﴿ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ بمعنى وسمعت لربِّها ، يجوز أن يكون أسمعها الله حقيقةً ، ويجوز أن يكون شبَّه امتدادها وإلقاءها ما في بطنها بمأمورٍ سمع ما أُمِر به فأسرع إلى إجابته ، ويكون "سمعت" هاهنا بمعنى : قبلت ، وهذا مثل قوله : ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ ﴾ "[1].

والطاهر ابن عاشور يرى أنها ليست من الاستعارة بل هي " مجاز مرسل في التأثر لأمر الله التكويني بأن تنشق " [2].

والأولى حمل الآية على الحقيقة ؛ لعدم وجود القرينة الصَّارفة عن إرادة الحقيقة، فليس بممتنعٍ على قدرة الله عزَّ وجلَّ وإرادته أن يُنطق هذه المخلوقات العظيمة ، وأن تسمع منه وتجيبه ، فلفظ الشرع إذا ورد ولم يمنع

(١) مجاز القرآن : ٣٦٥ ، وانظر حاشية زاده على تفسير البيضاوي : ٨ / ٥٤٦ .

(٢) التحرير والتنوير : ١٢ / ٢١٩ .

من إجرائه على ظاهره عقل ولا شرع وجب حمله على ظاهره ولا مبرِّر فيه للقول بالمجاز .

ومن لطائف التعبير القرآني في آيات هذا المقطع استخدام أداة الشرط ﴿ إِذَا ﴾ والتي الأصل فيها الدّلالة على تحقّق الشرط ووقوعه ، فهي تُستعمل في المعنى المحقَّق الوقوع المجزوم به دون المظنون ظنّاً راجحاً أو مشكوكاً فيه يقول الشيخ عبد القاهر في سياق حديثه عن النظم وما ينبغي للمتكلم البليغ أن يراعيه من سوق الكلام حسب ما تقتضيه قوانين النحو: " .. فيعرف لكلٍّ من ذلك موضعه ويجيء به حيث ينبغي له ، وينظر في الحروف التي تشترك في معنى ثم ما ينفرد كلّ واحدٍ منها بخصوصيَّةٍ في ذلك المعنى ، فيضع كلاً من ذلك في خاص معناه ، نحو : أن يجيء بـ (ما) في نفي الحال ، وبـ (لا) إذا أراد نفي الاستقبال ، وبـ (إنْ) فيما يترجّح بين أن يكون وألا يكون ، وبـ (إذا) فيما عُلم أنه كائن " [(١)].

وقد جاءت ﴿ إِذَا ﴾ هنا في سياق وصف أهوال يوم القيامة وصفاً يقطع الشك والريب ، ويشعر بالحسم لا محالة يقول المبرد : " .. إذا قلت : إذا أتيتني ، وجب أن يكون الإتيان معلوماً ، ألا ترى إلى قول الله عزّ وجلّ : ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ۝١ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ۝١ ﴾، أنَّ هذا واقع لا محالة ، ولا يجوز أن يكون موضع هذا (إنْ)؛ لأنّ الله عزَّ وجلَّ

(١) دلائل الإعجاز : ٥٥ ، وانظر مفتاح العلوم : ١٣٠ .

يعلم"[1].

وتكرار ﴿ إِذَا ﴾ مشعرٌ بتهويل ما في حيِّزها من الدَّواهي والأهوال، و"للتنبيه على ما في كلٍّ من الجملتين من عظيم القدرة " [2].

وقوَّى ذلك وأكَّده مجيئ أفعال هذا المقطع الدَّالة على هذه الأهوال المستقبلية يوم القيامة في صورة الماضي لا المضارع المستقبل : ﴿ ٱنشَقَّتْ ، وَأَذِنَتْ ، وَحُقَّتْ ، مُدَّتْ ، وَأَلْقَتْ ، وَتَخَلَّتْ ،وَأَذِنَتْ ، وَحُقَّتْ ﴾ ، وفي ذلك إشعارٌ للمتلقي الذي لطالما استبعد وقوع البعث وأنكر النشور بتحقُّق وقوع هذه الأحداث المستقبليَّة الرهيبة ، وثبوت حصولها ، لتشعر معه النفس برهبة الموقف ، وكأنَّه أمرٌ وقع وانتهى فأصحابه عاينوا أهواله ، وكأنها قصة أحداث تروى وتُحكى فلا مجال لإنكارها وتكذيبها ، " فيخيَّل إلينا أنَّ الآيات إنما تحكي أحداثا وقعت بالفعل ، ومضت عليها القرون مع أنها في الواقع أمور مستقبلية سوف تحدث بعد أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لقد اخترقت بنا الآيات الغيب حجب البعيد ، وطوت الآباد من الزمن طيّا لتضع بين أيدينا مشاهد متعددة الألوان ترد بأسلوب الماضي وكأنها تاريخ يُحكى لتؤخذ منه العبرة ، وهذه الطريقة التي انفرد بها النظم القرآني تؤكِّد الثّقة في وقوع هذه الأحداث فكأنها حدثت بالفعل ولا مجال للشّكّ فيها فقد أخبر عنها علام الغيوب " [3] .

(١) المقتضب : ٢ / ٥٥ .

(٢) نظم الدرر : ٨ / ٣٦٨ .

(٣) من بدائع النظم القرآني : ١٥ ، د. السيد حجاب .

ولا يخفى ما ينطوي عليه هذا الخروج عن مقتضى الظاهر من تحذيرٍ للمخاطبين المنكرين الجاحدين لليوم الآخر ، ودعوتهم للمسارعة بالإيمان بالله وعدم الإشراك معه أحداً في عبادته قبل أن يجدوا أنفسهم في ذلك الموقف الرّهيب يعاينون الحساب وشِدَّته ، فلا محيص لهم عن الإقرار به والتَّصديق بمضمونه .

وإخبار القرآن الكريم عن المستقبل والأحداث المرتقبة بطريقة الإخبار عن الماضي هو من أقوى أساليب التوكيد، وهو مظهر من مظاهر القدرة الإلهيَّة؛ إذ لا يمكن أن يصدر إلا عن القويّ القادر المقتدر الذي لا يُعجزه شيء، والذي يقول للشيء كن فيكون ، فيصبح المحتمل أو ما هو للوقوع واقعاً ، فهو خبر من لا يتخلَّف خبره ، وقد كثر هذا الأسلوب في آي الذِّكر الحكيم حتى صار كالأصل المعهود فقال الشهاب الخفاجي : " أكثر أحوال القيامة يُعبَّر عنها بالماضي في القرآن " (١).

وما درج عليه القرآن الكريم من الإخبار عن أحداث القيامة ومقدِّماتها بصيغة المضيّ هو عند البلاغيين من قبيل الاستعارة التَّبعيَّة باستعارة صيغة المضيّ للحدث المستقبل ، إذ استعارة الفعل تعود إلى مصدره ، والجامع بين طرفي الاستعارة هنا هو التحقّق بتشبيه غير الموجود في تحقّق وجوده بما هو موجود كائن ، يقول الشيخ عبد القاهر : " الذي يجب العمل عليه أنّ الفعل لا يتصوّر فيه أن يتناول ذات شيء ، كما يتصور الاسم ، ولكن شأن الفعل أن يثبت المعنى الذي اشتق منه للشيء في الزمان الذي تدل صيغته عليه ، فإذا

(١) حاشية الشهاب : ٥ / ٤٣ .

قلت: ضرب زيد أثبت الضّرْب لزيد في زمانٍ مضى ، وإذا كان كذلك ، فإذا استعير الفعل لما ليس له في الأصل ، فإنه يثبت باستعارته له وصفاً هو شبيه بالمعنى الذي ذلك الفعل مشتق منه " [(١)].

وقد يكون الماضي المعبَّر به عن المضارع المستقبل من المجاز المرسل لعلاقة الضّديَّة ؛ إذ ذكْر أحد الضدّين – المستقبل والماضي – يستدعي حضور الآخر في الذّهن ، بمعنى أن العلاقة بين لفظ الماضي المذكور والمستقبل المقصود مستفادة من اجتماع المتضادين وتجاورهما في الخيال ، يقول الدسوقي : " التعبير عن المستقبل بلفظ الماضي وعكسه يحتمل أن يكون من المجاز المرسل ، والعلاقة بينهما التضاد ؛ لأنّ الضد أقرب خطوراً بالبال عند ذِكْر ضدّه ، فبينهما شبه المجاورة لتقارنهما غالباً في الخيال "[(٢)].

وما أبلغ سوق هذه الأحداث العِظَام والحوادث الجِسَام التي تأسر الألباب وتأخذ بمجامع القلوب في سياق أسلوب الشرط الذي يثير الشَّوق ويحرِّك النَّفس لمعرفة الجواب إلا أنَّ جواب الشرط هنا تُرك ذكره على رأي جمهور المفسِّرين للإيجاز والتفخيم والتعظيم والتّشويق ، فأمّا الإيجاز والاختصار؛ لتكرُّر مثله في القرآن الكريم ، فهو في غاية الظهور والانكشاف و" اكتفاءً بما عُلم في مثلها من سورتي التَّكوير والانفطار "[(٣)] في قوله تعالى:

---

(١) أسرار البلاغة : ٥١ .

(٢) حاشية الدسوقي على شرح السعد : ١ / ٤٨٤ " ضمن شروح التلخيص " .

(٣) الكشاف : ٤ / ٧٢٦ ، وانظر نظم الدرر : ٨ / ٣٦٨ .

﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة التكوير]، وقوله تعالى: ﴿ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ ﴾ [سورة الانفطار]، أو لعلَّ سياق الآيات بعدها دلَّ عليه ، وتقديره : " بُعثتم أو جُوزيتم أو لاقيتم ما عملتم " ، يقول الزَّمخشريّ : " وقيل: جوابها ما دلَّ عليه ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أي إذا السَّماء انشقَّت لاقى الإنسان كدحه"(١).

وأمَّا التفخيم والتعظيم للمحذوف والتهويل لشأنه ؛ فإنَّ الحذف مشتمل على الإبهام وذلك قاضٍ بأن يذهب الذِّهن للبحث عن هذا المقدَّر كلَّ مذهب ممكن ، وتتشوَّف النفس للكشف عن الجواب المراد ، فيرجع قاصراً عن إدراكه؛ لأنه شيء لا يحيط به الوصف ، فعند ذلك يعظم شأنه ، ويعلو في النَّفس مكانه، والشيء إذا نيل طلبه بعد الشوق إليه والحنين له كان نيله أحلى وبالميزة أولى، ولو صُرِّح بالجواب بلا عناء ولا طلب لوقف الذهن عند المصرّح به، ولا يكون له في النفس ذلك الوقع والأثر، مع ما في تركه من زيادة الأجر بسبب الاجتهاد في إدراكه والتّعرّف عليه .

ويرى الطاهر ابن عاشور أن جواب الشرط في جملة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ باعتبار ما فرّع عليه من قوله: ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾؛ " لأنَّ المعطوف الأخير بالفاء في الأخبار هو المقصود مما ذكر معه، فالمعنى: إذا السماء انشقت، وإذا الأرض مدّت، لاقيت ربك أيها الإنسان بعد كدحك لملاقاته، فكان قوله: ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ إدماجا بمنزلة الاعتراض أمام المقصود "(٢).

ويمكن أن يكون جواب الشرط هو قوله : ﴿فَمُلَٰقِيهِ ﴾ والمعنى : إذا كان

(١) الكشاف : ٤ / ٧٢٦ ، وانظر نظم الدرر : ٨ / ٣٦٨ .
(٢) التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٢٠ .

يوم القيامة لقي الإنسان عمله وجزاءه ، ويكون قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ ﴾ جملة اعتراضيَّة بين الشرط وجوابه [1].

وقد جاءت جمل الشرط في آيات هذا المقطع من السورة موصولة بالواو لاتفاقها في الخبرية مع التناسب وانتفاء المانع من الوصل ، كما أنها ملحوظ فيها قِصَر آياتها ووجازة بنائها التركيبي ، مع اختيار ألفاظها بالغة الإثارة قوية الوقع والجرس ﴿ ٱنشَقَّتۡ ﴾ ﴿ وَحُقَّتۡ ﴾ ﴿ مُدَّتۡ ﴾ ﴿ وَأَلۡقَتۡ ﴾ ﴿ وَتَخَلَّتۡ ﴾ ﴿ وَحُقَّتۡ ﴾؛ لتتلاءم بجرسها وحركاتها في تصوير الشدة والقوة المصاحبة لموقف أهوال يوم القيامة وشرّه المستطير ، وما يحصل فيه من جدٍّ وحسم ، وما يحمله من مفاجأة ومباغتة وسرعة خاطفة ، فضلا عما يحمله ذلك من توازن صوتي يجذب أسماع المخاطبين ويلفت انتباههم ، وييسر الحفظ ويؤكد المعنى مما يضمن للمعنى الاستمرارية والذيوع .

ولما كان الحديث عن أهوال يوم القيامة ومشاهد تدمير الكون والحياة الذي جاء في أول السورة ، كالتمهيد للحديث عن القضية الأساسية في السورة وهي العرض والحساب والجزاء ، والرد على المنكرين المكذبين بهذه القضية ، فإنه أتبعه بالحديث عن المقصد الأساسي من السورة في المقطع التالي .

والقيمة البلاغيَّة لهذا الابتداء بشدائد الساعة وبما حوته من ألفاظٍ لها دلالتها، تكمن في تهيئة النفوس المتلقية تهيئة عالية ، والتأثير فيها لشدّها إلى

(١) انظر تفسير البيضاوي ومعه حاشية زاده عليه : ٨ / ٥٤٨ .

الاستماع إلى ما بعدها وإغرائها بالمتابعة ، فتنصرف عن التفكير في الدنيا بملذاتها وشهواتها طالما أنَّ هذا مآلها إلى استقبال الحديث عن مصيرها في دار القرار، فيتمكن منها أيّما تمكّن حين وروده عليها، وهذا التأثير حاصل للنفوس المؤمنة وغير المؤمنة ما دامت تملك زمام اللغة فصاحةً وبلاغةً وإدراكاً لأسرار العربيّة وجمال ألفاظها وعباراتها.

المبحث الثَّاني: أحوال النَّاس عند العرض يوم القيامة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ۝٦ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ۝٨ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝٩ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ۝١٠ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ۝١١ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ۝١٢ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ۝١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ۝١٤ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ۝١٥ ﴾ .

تقدّمت الإشارة في التّمهيد إلى أن تناسب هذه السورة مع السّورتين قبلها جاء من تتالي هذه السور الثلاث في الحديث عن الكتب ابتداءً بكتابة أعمال العباد في الدنيا في سورة الانفطار ، واستقراراً في عليين " وهو أعلى الأمكنة وأوسعها وأفسحها ، " أو سجّين " وهو أسفل الأمكنة وأضيقها " في سورة المطففين ، وتفريقاً يوم العرض في سورة الانشقاق ، فآخذٌ كتابه بيمينه وهو عنوان السعادة ، وآخذٌ كتابه وراء ظهره وهو عنوان هلاكه ، وآيات هذا المقطع جاءت لأجل شرح وتوضيح ذلك .

والمتأمّل في آيات هذا المقطع من السورة يلحظ أنها صُدّرت بنداءٍ إلهيٍّ للإنسان أنه ساعٍ إلى ربِّه في هذه الدنيا سعياً حثيثاً ؛ وصائرٌ إليه بجدٍّ حثيث مع جهد ومشقَّةٍ ليلاقيه بعمله يوم القيامة، ومن ثَمَّ ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ ﴾ [سورة طه] .

والمراد بافتتاح الكلام بالنداء إيقاظ النفس ولفت الذهن وتنبيه المشاعر وتهيئتها لتلقي ما سيلقى إليها من أمور عظيمة لها مكانتها في الدين ، ومقاصد كبرى ينبغي الاعتناء بها وحشد الاهتمام لها ، فـ " كل نداء في كتاب الله يعقبه

فهم في الدين ، إما من ناحية الأوامر والنواهي التي عقدت بها سعادة الدارين ، وإما مواعظ وزواجر وقصص لهذا المعنى ، كل ذلك راجع إلى الدين الذي خلق الخلق لأجله ، وقامت السموات والأرض به ، فكان حق هذه أن تدرك بهذه الصيغة البليغة " [١].

ومن بديع البلاغة في هذا المقطع افتتاحه بالنداء بصيغة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾، وذلك لما تحمله من لطائف بلاغية وأسرار بيانية ، هي :

- التأكيد بحرف التنبيه والنداء (يا) والتنبيه في (ها) ، فإن النداء يوجب انتباه المنادى وإصغاءه ، ولعله نودي الإنسان بأداة البعيد " يا " تنبيهاً على أن سيئاته أبعدته عن القرب من الله تعالى .
- تكرّر ذكر المنادى؛ فمرةً بالنكرة المقصودة (أيّ)، وأخرى بتابعه ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ .
- التّدرّج من الإبهام في (أيّ) إلى الإيضاح بالاسم المعرف بـ أل ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾.
- اجتماع التعريفين وذلك في (أيّ) و ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ .

وللزمخشري وقفة متأمّلة لبلاغة النداء في الكتاب الكريم وما فيها من ملاحظ بيانية فقال: " ..(يا) حرف وضع في أصله لنداء البعيد؛ صوت يهتف به الرجل بمن يناديه ، وأما نداء القريب فله (أي) و (الهمزة)، ثم استعمل في مناداة من سها وغفل وإن قرب تنزيلا له منزلة من بَعُد، فإذا نودي به القريب

(١) البرهان في علوم القرآن : ٢ / ٣٢٤ .

المفاطن فذلك للتأكيد المؤذن بأن الخطاب الذي يتلوه معنيّ به جدا"، وفي تحليل النداء بصيغة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ﴾ يقول : " و (أي) وصلة إلى نداء ما فيه الألف واللام ، كما أن (ذو) و (الذي) وصلتان إلى الوصف بأسماء الأجناس ووصف المعارف بالجمل ، وهو اسم مبهم مفتقر إلى ما يوضحه ويزيل إبهامه ، فلا بد أن يردفه اسم جنس أو ما يجري مجراه يتصف به حتى يضح المقصود بالنداء ، فالذي يعمل فيه حرف النداء هو (أي) والاسم التابع له صفته "، ثم يقول: "وفي هذا التدرج من الإبهام إلى التوضيح ضرب من التأكيد والتشديد، وكلمة التنبيه المقحمة بين الصفة وموصوفها لفائدتين: معاضدة حرف النداء ومكانفته بتأكيد معناه، ووقوعها عوضا مما يستحقه (أي) من الإضافة، فإن قلت : لم كثر في كتاب الله النداء على هذه الطريقة ما لم يكثر في غيره؟ قلت: لاستقلاله بأوجه من التأكيد ، وأسباب من المبالغة؛ لأن كلّ ما نادى الله له عباده من أوامره ونواهيه، وعظاته وزواجره، ووعده ووعيده، واقتصاص أخبار الأمم الدارجة عليهم .. وغير ذلك مما أنطق به كتابه – أمور عظام ، وخطوب جسام، ومعان عليهم أن يتيقظوا لها، ويميلوا بقلوبهم وبصائرهم إليها، وهم عنها غافلون؛ فاقتضت الحال أن ينادَوا بالآكد الأبلغ"[1].

وخطاب المنادى بلفظ ﴿ ٱلْإِنسَٰنُ ﴾ دون لفظ " المرء " مثلاً ؛ لما تُوحي به مادته من الأُنس بالنفس واغتراره بها ورؤية محاسنها ونسيان ربِّه وغفلته

(١) الكشاف : ١ / ٤٦ ، وانظر حاشية السيد على الكشاف : ١ / ٢٥٥ ، والإتقان في علوم القرآن : ٣ / ٢١٢ .

عن سيئاته، فأكثر المخاطبون بهذا النّداء هم من المنكرين للبعث الجاحدين للحساب يوم القيامة ، فهي ألصق رحماً بهذا السياق ، كما أنها تشعر بالتّلطّف في الخطاب واستثارة نوازع الخير والإنصاف فمقام الوعظ والتذكير يقتضي إلانة القول كما أوصى الله – جل جلاله – موسى وهارون حين أرسلهما إلى فرعون: ﴿ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾ ﴾ [سورة طه] .

وفي إفراده وتعريفه بـ "أل" استغراق لجميع جنس الإنسان وكل فرد من أفراد الناس ممن وجد فيه معنى الإنسانية ، فيشمل المؤمن والكافر بدلالة التفصيل الوارد بعده في قوله تعالى :﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ إلى قوله تعالى :﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾.

وفي اصطفاء لفظ ﴿ رَبِّكَ ﴾ المضاف إلى ضمير المخاطب دلالة على الاختصاص والولاء والتربية، فهو الذي أوجدك من العدم وربّاك وبإمكانه إعادتك.

ولما كان المقصود الأول بالخطاب في هذه الآية وعيد المشركين المكذّبين بالبعث والنشور أكّد الكلام بحرف التأكيد ﴿ إِنَّ ﴾ وبالمصدر ﴿كَدْحًا ﴾ المؤكد لعامله ﴿ كَادِحٌ ﴾ الذي جاء اسم فاعل ليفيد أن كدحه في حال حياته ، وليس في المستقبل بعد مماته؛ إذ اسم الفاعل يفيد الحال لا الاستقبال ، وفي تنكيره إبهام له مما يدل على عظمه وتهويله لتذهب النفس فيه كل مذهب كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ ﴾ [سورة الليل] ، فسَعْي الإنسان في هذه

الحياة بالخير أو الشّرّ متواصلٌ حتى الموت، ومن ثَمّ لقاء ربه الذي هو أمر لا محالة واقع ولا مفرّ منه .

فأمَّا الضمير في قوله : ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ فقيل: عائد إلى الرَّب أي فملاقٍ ربَّك، وقيل: عائد إلى الكَّدْح أي فملاقٍ ثواب عملك وجزاء كدْحك: إن خيراً فخير، وإن شرَّاً فشرٌّ، فلن تُعدم جزاء بالفضل إن كنت سعيدا، أو بالعدل إن كنت شقيًّا [1].

والتّعبير باللقيا يشي بالمفاجأة والمباغتة حيث " ينكشف لك من عظيم أمره ما ينكشف للملاقي مع من يلقاه بسبب اللقاء ... وفيه حثٌّ على الاجتهاد في الإحسان في العمل ؛ لأنّ من أيقن بأنّه لا بدّ له من العرض على الملك أفرغ جهده في العمل بما يحمده عليه عند لقائه " [2].

والفاء التي اتصل بها الاسم ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ هي الفاء العاطفة وهي تفيد – بالتأمل في سياقها – زيادة معنى على الترتيب وهو " مطُّ الزمن ومَطْلُه " ، وهذا معنى غريب على الفاء التي وضعت عند النحاة لعكسه وهو " التعقيب " ، فهي هنا ليست للتعقيب المباشر دون فاصل ، بل لتطويل الزمن فيما قبلها " المعطوف عليه " ومطله حتى تبلغ به أول الزمن فيما يليها " المعطوف " ، أي لتمط زمن كدح الإنسان وتطيل استمرار دأبه في هذه الحياة حتى أول لقاء الله يوم القيامة ، وهذا المعنى والغرض الذي اقتضى دخول الفاء لو وضعت مكانه

(١) انظر المحرر الوجيز : ١٩٦١ .

(٢) نظم الدرر : ٨ /٣٦٩ .

أي حرف آخر من حروف العطف لتلاشي وسقط ، يقول د. محمد الأمين الخضري : " حاول أن تقطع المعطوف عن المعطوف عليه ، وقل : "إنك كادح إلى ربك كدحا" فستجد أن المعنى قد تغيّر ، وصار تأكيد الكدح مقطوعا عن الزمن، وحاول ثانية أن تضع الواو موضع الفاء ، فتقول: "وملاقيه" فإنك ستضيف إلى تأكيد الكدح خبرا آخر بوقوع الجزاء عليه ، ويكونان خبرين مستقلين ، ثم حاول أخيرا أن تضع حرف المهلة بدلا من الفاء لتقول : "ثم ملاقيه"، فسوف ترى أنك وضعت فاصلا زمنيا يقطع الكدح عن لقاء الله ومجازاته، فإذا عادت الفاء إلى مكانها اتصل الكدح بلقاء الله أو بمجازاته، على النحو الذي أراده الله من بيان الحكمة في خلق الإنسان ليعمر الأرض بكفاح دائم متصل لا ينقطع إلا بانقطاع آخر أنفاسه ، يكدح مستيقظا ، ويكدح ذهنه باستعراض همومه نائما ، ويتواصل العمل والكفاح إلى أن ينتقل المرء من دار العمل إلى دار الجزاء ، وذلك هو إشعاع حرف التعقيب في موقعه هذا من القرآن المجيد"[١].

والإجمال المذكور هنا في قوله : ﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾ أعقبه بذكر تفصيل أحوال الجزاء لأعمال الناس في الدنيا المقبولة والمردودة ، فهي الجملة الأم التي يتفرع منها التقسيم بنوعيه ، حيث شرعت الآيات بعد ذلك في بيان أحداث العرض يوم القيامة ، وإشباع الحديث عن أحوال الناس عند تطاير الصحف وعاقبة كل فريق ، وفي الإيضاح بعد الإبهام تأكيدٌ وتقوية للمعنى حيث يرى في

(١) من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم " الفاء وثمّ " : ٦٨ .

صورتين مختلفتين صورة مبهمة وأخرى موضحة ، وفيه تمكينٌ للمعنى في النفس لوقوعه فيها بعد شوقٍ إليه ولهفةٍ عليه ، وإكمال للذة العلم به لحصوله للنفس بعد حرمان منه وألم بسبب جهله ، وفيه تفخيم للأمر وتعظيم له .

وآيات هذا المقطع في هذه السورة المكيَّة تتكامل في رسم هذا الموقف العظيم مع آيات سورة مكية نزلت قبلها بـ " ٤ " سورٍ هي سورة الحاقة التي هي الثامنة والسبعون نزولا حيث يقول تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ .

وواضحٌ أن الإطناب والتفصيل في سورة الحاقة في تصوير أحوال الناس عند العرض ونقل أقوالهم ومواقفهم وحالاتهم النفسيّة " فرحا وندما " عند تطاير الصحف وعند أخذهم كتبهم أكثرُ منه في سورة الانشقاق ، فأسبقيّة النزول في

الحآقّة أغنت عن كثير من التكرار والإعادة في الانشقاق خصوصا أنه ليس بينهما زمن طويل في النزول هذا من جهةٍ ، ومن جهةٍ أخرى فإن سورة الانشقاق مبنية على الإجمال والإيجاز ، ولم يقصد فيها البسط كما في سورة الحآقّة.

وعند التأمّل في ظلال الآيات ومعناها وبإمعان الفكر في نظمها نلحظ أنه عرض أحوال الناس يوم القيامة عند تطاير الصحف وأَخْذهم كتبهم من خلال محسِّن الجمع مع التقسيم ، الجمع في قوله تعالى :﴿فَمُلَٰقِيهِ﴾، والتقسيم جاء بأداة الشرط والتفصيل والتوكيد﴿أَمَّآ﴾ وكل قسم مكوَّن من شرط وجوابه، وقد طوي ذكر المقسم منه المتعدد وتقديره : " فمنكم من يؤتى كتابه بيمينه ، ومنكم من يؤتاه وراء ظهره " ، بدلالة مجيء ما لكلٍ من المتعدد على التعيين بـ ﴿أَمَّآ﴾ وبعده اسم الموصول وصلته ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ.....وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ...﴾ مما يستدعي أن يكون معروفا أمره قبل التقسيم وله ذكر سابق ، ولا شك أن الجمع مع التقسيم في آيات هذا المقطع زاد النظم جمالا وترابطا وقوة ، ففيه تلوين للكلام بأداء المعنى بصورتين مختلفتين ، فذكْر الشيء قبل تفصيل أحواله يشوق السامعين لمعرفتها ، وينشِّط فكرهم لمتابعة نظمها بالانتقال من جمع إلى تقسيم فيزداد المعنى بذلك فخامة وتأكيداً لكونه ذُكر مرتين ، وذلك أيضا من عوامل ترابط الأسلوب واتحاد أجزائه ، فأوَّل الكلام متَّصل بآخره ؛ إذ تمام الفائدة متعلق على الانتهاء من الكلام جميعه ، مع ما فيها من تناسق صوتي بديع نشأ من الجمل المتساوية ، والأقسام المحددة ، وما فيها من توازن وسجع غالبا أحدث أثراً صوتياً له قيمته في وقع

الأسلوب .

وقد بُدء بالصِّنف الأوَّل وهم: "السُّعداء أصحاب اليمين من المؤمنين"؛ تكريماً لهم وتشريفاً لمقامهم عند الله جل جلاله ، وقد كنّى الله عن المؤمنين هنا بوصفهم بأخذ كتبهم باليمين في قوله : ﴿ مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴾ ، والعرب تذكر اليمين في سياق التكريم وفي كل أمرٍ بالغ الأهميَّة يُعتنى به ويُهتمّ له ، ومن ذلك قول الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد تلقاها عرابة باليمين[1]

فأوَّل علامةٍ من علامات هؤلاء السُّعداء ، وأول أمارةٍ على فوزهم أنهم يُعطون كتبهم بأيمانهم لما فيها من حسنات .

وجاءت صلة الموصول ﴿ مَنْ ﴾ بصيغة الفعل الماضي ﴿ أُوتِيَ ﴾ للإشعار بتأكّد حصول الإيتاء يوم القيامة ، تصويراً له بصورة الواقع الذي وقع وانتهى ، وهكذا هي أحداث يوم القيامة في القرآن الكريم يُعبّر عنها بصيغة الماضي قصد الدلالة على تحقُّق وقوعها وتأكُّد حدوثها ، وبني الفعل لما لم يسم فاعله ؛ لأن المقصود أخذهم لكتبهم لا تعيين من أعطاهم إياها ، و" إشارة إلى أن أمور الآخرة كلها قهر وفي غاية السّهولة عليه سبحانه وتعالى ، وفي هذه الدّار للأمر وإن كان كذلك إلا أنّ الفرق في انكشاف ستر الأسباب هناك فلا دعوى لأحدٍ "[2]. و﴿ كِتَٰبَهُۥ ﴾ هنا صحيفته وديوان أعماله، والإضافة

(١) البيت للشماخ بن ضرار الغطفاني . انظر ديوانه : ٣٣٦ .

(٢) نظم الدرر : ٨ / ٣٦٩ .

بما فيها من اختصاص تذكّر أن الكتاب من كسبه وعمله ، وهذا الصِّنف الأوَّل فصَّل الله جزاءه وعاقبته يوم القيامة من خلال أمرين ساقهما جوابا لـ ﴿ أَمَّآ ﴾ مقترناً بالفاء، وهما :

- ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ فتعرض عليه أعماله ويطلعه الله عليها سرَّاً دون مناقشة حيث يعفو عنه ويأمر به إلى الجنة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " ليس أحدٌ يُحاسب إلا هلك "، فقالت عائشة: يا رسول الله جعلني الله فداك أليس يقول الله عزّ وجلّ: ﴿ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ ؟ قال: ذاك العرض ، ولكن من نوقش الحساب هلك " [١].

وتصدير الجواب بحرف التّنفيس ﴿ سَوْفَ ﴾ المفيد للاستقبال إشارة إلى تلك المدّة المتطاولة حتى يقع هذا الحدث المستقبليّ من مواقف يوم القيامة والذي لمَّا يقع بعدُ ، فهذا اليوم وإن طال كائن لا محالة ، واستعمالها في مقام الوعد في القرآن الكريم أقلّ من مقام الوعيد والتّهديد [٢]، و﴿ سَوْفَ ﴾ من الله واجبةٌ فما بعدها من الوعد واقعٌ لا محالة [٣]، ونكَّر ﴿ حِسَابًا ﴾ ليفيد التقليل والتيسير بقرينة الوصف بعده ﴿ يَسِيرًا ﴾ .

(١) رواه مسلم في صحيحه ، رقم الحديث (٨٠) ، ٤ / ٢٢٠٥ .

(٢) انظر البرهان في علوم القرآن : ٤ / ٢٨٣ ، ووافقه د. محمد عضيمة في كتابه : دراسات لأسلوب القرآن العظيم .

(٣) ذكر ذلك الزمخشري في مواطن متعددة من الكشاف ومنها: ١ / ١٤٣، والراغب في مفرداته : ٢٤٩ .

- ﴿ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورٗا ۝٩ ﴾ فتكريماً لهم يعودون إلى أهليهم من زوجاتهم وأولادهم في الدّنيا والحور العين مسرورين غاية السرور بكرامة الله لهم بعد حسابٍ يسيرٍ ، فرحين والفرحة تملأ جوانحهم بما لاقوه من خيرٍ بعد معاناتهم وكدحهم في الدنيا ، وقدَّم الجار والمجرور وأخَّر الحال؛ للاهتمام ورعاية الفاصلة ، اهتماماً بالمجرور ﴿ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِۦ ﴾ بإظهار أن سروره وفرحته أتمّ وأكمل ما تكون عند عودته إلى أهله ورجوعه إليهم في الجنَّة بعد أن تُعرض عليه أعماله عرضاً يسيراً فيثاب على حسناته ويعفى عن سيئاته ، وتحقيقاً للتّناسب برعاية الفاصلة لتتلاءم فاصلتها مع غيرها من الآيات فأخّر الحال ﴿ مَسۡرُورٗا ﴾ فوقعت رأس الآية .
- ثم ثنَّى بالصنف الثاني وهم : " الكفرة " ، فكنىَّ عنهم بأخذهم كتبهم من وراء ظهورهم فقال : ﴿ وَأَمَّا مَنۡ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهۡرِهِۦ ﴾ ؛ فالكافر يوم القيامة تغلّ يده اليمنى إلى عنقه وتجعل يده الشمال وراء ظهره ليأخذ كتابه ؛ عقاباً له من الله ؛ لأنّه كان يعمل في الدنيا أعمالاً على خلاف ما أذن الله لعباده وشرع لهم ، فكأنّه يفعل من ورائه فأعطي كتابه من وراء ظهره ، ولم يقابل هنا الشمال باليمين كما في سورة الحآقة ، ولا تعارض في ذلك ، فالكافر يؤتى كتابه بشماله ، وإمعاناً في تحقيره وإذلاله تخلع شماله وتلفّ من وراء ظهره ليتلقَّى كتابه بها .

وجاءت الجملة موصولة بما قبلها، والذي سوّغ الوصل فيها اتفاق الجملتين في الخبريَّة، والذي حسّنه هو وقوع التّضادّ والتقابل بين الجملتين" حال

المؤمنين وحال الكافرين "، وهو من محسّنات الوصل بين الجمل، فهو يزيد من التّناسب بين الجملتين.

وفائدة إعادة أداة التقسيم والتفصيل مع اسم الشرط وفعل الشرط والمفعول به ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ ﴾ ؛ لتكون كل جملة مستقلة الدلالة على المعنى المراد، ولتختصَّ كلّ جملة بغرضها من الترغيب أو الترهيب، فأهمِّيَّة ذلك تقتضي التصريح والإطناب ، وتنصيصاً على حشر كلّ فرد لوحده، ويظهر لي أن إسقاط حرف الجر في قوله تعالى : ﴿ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴾ يُشعر بعموم الجهات التي يأتيه فيها الكتاب ، فهو أشدّ تخويفاً وأعظم ترهيباً، وإضافة الظهر إليه أشدّ في التخويف بما في الإضافة من اختصاص.

وقد أخبر الله تعالى عن عقاب الكافرين والعصاة ومصيرهم بعدَّة جملٍ، هي :

- ﴿ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ ﴾ إذا قرأ كتابه يتمنى الهلاك حسرةً على ما فاته، فينادي بالويل والثبور على ما فرَّط من حياته ، ويتمنى ألا يؤتى كتابه وهو آخذه لا محالة ، وهذا الأسلوب الخبريّ يصوّر لنا المشهد وكأننا نسمع صرخاته ونشاهده يتلفَّت يميناً وشمالاً بحثاً عن مخرجٍ ونجاةٍ من المصيبة التي هو فيها ، ومن العذاب الذي ينتظره ، فإذا كلُّ سبل النَّجاة مسدودة فتنفجر الدعوات بهلاك نفسه من أعماقه : " يا ويلاه يا ثبوراه " ، وكلُّها يأس وارتياع ؛ إذ ﴿ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ ﴾ [سورة غافر] ، وجاءت الآية هنا مجملة في غاية الإيجاز البديع ، وإنما أُوثر الإجمال هنا تعويلاً على ظهور المراد لسبقها بالتفصيل والإطناب في سورة

الحآقة ، فالثبور الذي يتمناه الكافر هو قوله :﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ ﴾ ، وقد صدّر الجواب هنا بحرف الاستقبال ﴿ سَوۡفَ ﴾ ؛ لأنها تتحدث عن حدثٍ مستقبليٍّ من مواقف الهول يوم القيامة لمَّا يقع بعدُ ، والتعبير بـ ﴿ ثُبُورًا ﴾ أليق وأنسب لسياق الآيات ؛ لأنه جامع للهلاك والويل والخسار والدمار، ولا يتأتَّى التعبير به إلا عند عِظم البلاء والهلاك والخسران قال تعالى على لسان موسى عليه السلام يخاطب فرعون: ﴿ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرۡعَوۡنُ مَثۡبُورٗا ﴿١٠٢﴾ ﴾ [سورة الإسراء] ، وقال تعالى مبيِّناً حال الكافرين حين يُلقى بهم في جهنم:﴿ وَإِذَآ أُلۡقُواْ مِنۡهَا مَكَانٗا ضَيِّقٗا مُّقَرَّنِينَ دَعَوۡاْ هُنَالِكَ ثُبُورٗا ﴿١٣﴾ لَّا تَدۡعُواْ ٱلۡيَوۡمَ ثُبُورٗا وَٰحِدٗا وَٱدۡعُواْ ثُبُورٗا كَثِيرٗا ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة الفرقان] ، والتنكير لـ ﴿ ثُبُورًا ﴾ قد يُشعر بأنّه يقبل بأيِّ نوعٍ من الهلاك ليفرّ من هول ما هو فيه .

- ﴿ وَيَصۡلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ ﴾ فمآله ومصيره أن يتقلَّب في نار جحيم مستعرة متأججة ، قد أطبقت أهوالها عليه من كلِّ ناحية فيشوى بها ، وفي تنكير ﴿سَعِيرًا ﴾ إيماء إلى عظيم هولها المتعذِّر معه بلوغ كنهها وإدراك غايتها ، وقد جاءت الجملة موصولة بما قبلها ، والذي سوَّغ الوصل فيها اتفاق الجملتين في الخبريّة ، ولعل سائلاً يسأل عن السبب الذي أوبق هذا

الظالم فيه نفسه وجعل مصيره إلى جهنم ، فجاء الجواب في الآية بعدها في قوله تعالى.

- ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ ، أي كان فرحاً مترفاً بطراً في الدنيا يتبع هواه ويحقق شهواته، لا يتفكَّر في عواقب الآخرة ولا عن مصيره فيها، وقد جاء هذا الإخبار معزَّزاً بعدّة مؤكّدات هي: حرف التوكيد المثقّل ﴿ إِنَّ ﴾ الذي افتتحت به الآية، مما زاد من قوّة الإسناد في الجملة ، وجعله في منزلة تكرير المسند إليه والمسند مرّتين ، والتعبير بحرف الجرّ ﴿ فِىٓ ﴾ الذي يفيد معنى الوعائيَّة والظرفيَّة والتمكُّن والاستقرار يدلّ على أن هذا الشخص متمكِّنٌ في السرور والفرح بين أهله وذويه ، فهو منغمس فيهم مستقر استقرار وتمكُّن الشيء الموضوع في الوعاء أو الظَّرف حتى نسي لقاء الله تعالى وغفل عنه ، ثم انتقل إلى الحديث عن موبقة أكبر منها ، وهي :

- ﴿ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ ﴾ فالكافر ظنَّ أنه لا بعث ولا نشور ولا رجوع إلى الله للجزاء والحساب على اعتبار أن معنى " الحور " الرّجوع وهو كناية عن إنكاره للبعث ، وأما على اعتبار أن " الحور " بمعنى : الرجوع إلى خلاف ما كان عليه الإنسان في الدنيا فيكون المعنى : إن الكافر ظنّ أنه لن يرجع إلى خلاف ما هو عليه في الحياة الدنيا من الفرح والنعيم ، وقد أكّد الله عز وجل ظنّهم هذا بمؤكدات عدة هي : الجملة الاسمية الدالة على ثبوت هذا الظّنّ في نفوسهم وترسخه في عقولهم حتى موتهم ،

وحرف التوكيد المثقّل ﴿ إِنَّ ﴾ المقرّرة والمؤكّدة لهذا الظّنّ الذي هو بمعنى الاعتقاد كقوله تعالى : ﴿ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [سورة الحشر]، فهي بمثابة التكرير في الجملة " تكرير المسند إليه والمسند " مرتين ، وحرف التوكيد المخفف ﴿ أَن ﴾ ، وحرف النفي ﴿ لَن ﴾ الداخل على الفعل المضارع ﴿ يَحُورَ ﴾ الذي يفيد قوة النفي وتأكيده في الجمل الفعلية ، والمشعر بأن هذا الظّنّ كان متمكنا في نفوسهم في الدنيا ، والحجَّة في إفادته التَّوكيد أنَّ ﴿ لَن ﴾ مركبة من " لا " و " أَنْ " فأفادت ما افترق فيهما من تأكيد النفي ؛ لأنَّ أداة النفي المركبة أقوى وآكد في النفي من الأداة البسيطة [1].

ودقّة التعبير القرآنيّ اقتضت مجيء هذه الجملة مؤكدة ، فمع أنه كلام من لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه إلا أنه ساق الخبر عنهم مؤكَّداً بكلّ هذه المؤكّدات ؛ ليرسّخ صورة هؤلاء المكذّبين بالبعث ، ويرسم حقيقة موقفهم ، ويعكس حقيقة ثباتهم على إنكار البعث والتكذيب به .

وقد جاءت كلتا الجملتين ﴿ إِنَّهُۥ كَانَ فِيٓ أَهۡلِهِۦ مَسۡرُورًا ١٣ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ١٤ ﴾ مفصولة عما قبلها ومستأنفة استئنافاً تعليليّاً جوابا عن سؤال مقدّر عن سرِّ العمل الذي عملوه في الدّنيا فكان مصيرهم التّقلّب في جهنم وجعل عقوبتهم

(١) انظر حول إفادة (لن) توكيد النفي شرح المفصل : ٨ / ١١١ لابن يعيش ، والتفسير الكبير: ٢ / ١٣٢ ، والطراز : ٢ / ٢٠٨ .

الاصطلاء بلهبها ، فموقع هاتين الجملتين مما قبلهما موقع التعليل ، فضلاً عن أن حرف التأكيد ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ في صدر الآيتين له من المعاني الجليلة ما يؤدّيه حرف الوصل ، فهو يغنى غناء الفاء أو الواو العاطفة ، ويزيد بأن يجعل الكلامين بمنزلة الكلام الواحد ، مع إفادة التوكيد والتعليل .

ثم شرع الله في إبطال نفي الكفار للبعث والرّد على مزاعمهم الباطلة بإنكاره ، فقال تعالى : ﴿ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ ، فلما كان نفيهم للبعث قوياً مؤكَّداً بـ ﴿ لَن ﴾ صدَّر جملة إبطاله بحرف الجواب المختص بإبطال النفي ونقضه ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ لتدحض حجج المبطلين وتردّ زيغ الملحدين حيال هذا الزّعم ، وتنفيه نفياً مؤكَّداً يترتّب عليه إثبات ضدّه ، فهي إبطال للنفي وإثبات لضدِّه ، وحرف الجواب ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ يحسن استعماله في مقام الأمور البيِّنة التي لا محيد في جوابها كإثبات البعث وتحقيق وقوعه .

وجواب ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ غالباً ما يحذف للاختصار والإيجاز ؛ لأن ﴿ بَلَىٰٓ ﴾ تدل عليه ، ولذا يعامل معاملة المذكور فيعطف عليه ، وتقديره هنا : " بلى لتبعثنَّ ولتجازونّ على أعمالكم ، أو بلى ليبدلنَّ الله سروركم في الدنيا بحزن لا ينقطع ، ونعيمكم بشقاء لا ينتهي في الآخرة " كقوله تعالى : ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾ ﴾ [سورة التغابن] ، ففي الكلام إيجاز بحذف جملة .

ثم علَّل للجواب المقدّر بجملة بليغة موجزة تحمل تهديداً وزجراً عن

الكفر والمعاصي لكلِّ المكلّفين فقال جلَّ جلاله : ﴿ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ ﴾ فرجوع الإنسان للبعث أو لتبديل سروره بحزن لا ينقطع يوم القيامة أمر حتم؛ لأن ربه كان به بصيرا من يوم خلقه إلى حين بعثه ، عالما بما سيعمله من الكفر والمعاصي ومسجّلاً عليه أفعاله وسيجازيه عليها، فلم يكن يجوز في حكمة الله أن يُهمله فلا يُعاقبه على سيء أفعاله وهو الذي لا تخفى عليه خافية، وفي تأكيد هذه الجملة بحرف التوكيد المثقّل ﴿ إِنَّ ﴾ ما يوحي بقدرة المتكلم – عزَّ وجلَّ – على إنفاذ ما يريد من البعث يوم القيامة وتبديل سروره بغمٍّ لا ينقطع .

وفي اصطفاء اسم الرّبّ ﴿ رَبَّهُۥ ﴾ المضاف إلى ضمير الغيبة العائد لهذا الإنسان دلالة على إحسانه لهذا الإنسان وتربيته باللُّطف الموجب للعبادة والطّاعة لا مقابلته بالجحود والنُّكران .

وقد جرت عادة القرآن الكريم بتهديد المخاطبين وتحذيرهم بما يذكره من صفات الله عزَّ شأنه التي تقتضي الحذر والخوف والاستقامة فخُتمت الآية بقوله : ﴿ بَصِيرًا ﴾ " فعيل " بمعنى اسم الفاعل " مُفْعِل " ، صُرِف " مُفْعِل " إلى " فعيل " للمبالغة ، كقولهم : " أليم " بمعنى " مؤلم " ، فهو سبحانه البصير بعباده الذي أحاط بصره بكلِّ شيء ، الخبير الذي لا تخفى عليه خافية مهما لطفت أو بعدت .

وبعد هذا الوصف الفريد لموقف الفريقين عند العرض على الله تعالى ينبغي أن أختم ببعض الوقفات العامة:

- أحدث فنُّ التقسيم الوارد في سياق نظم آيات هذا المقطع لوناً من التقابل بديعاً بين حال فريقين مختلفين متضآدين يوم القيامة ، فأوجب حسنا زائدا على مجيء كل قسم منهما بمفرده ، هما : " المؤمنون المصدِّقون بوعد ربِّهم سيجازون خيراً ، والكافرون المكذِّبون بما جاء من عند الله سيعاقبون شرًّا " ، ولا شكّ أن بناء هذه المقابلة بين الحالين والجزاءين أظهرت المعنى واضحا قويا مترابطا ، وجعلت المخاطبين به يضع كل واحد منهم نفسه في كلّ موقف ، ويقيس كلّ امرئ نفسه بمقياسٍ جليٍّ فيحكم على مصيره ، ويتساءل مع أيهما يحشر ؟ ، فإن كان مع الأول جدّ واجتهد لطلب المزيد ، وإن كان مع الآخر جدّ لطلب النّجاة من سوء العاقبة ، فأسلوب المقابلة جاء هنا ليتميَّز الفريقان عند المقارنة بينهما ، وليتأكَّد حكم الضِّد بضدِّ الحكم ، فإذا انكشف للعقل خصائص هذين المتقابلين وجد طريقه إلى المقارنة فلا ينخدع ولا يُسوِّف ، وهذه هي طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترهيب والترغيب في مشهدين متقابلين متضادين .
- قدَّم الحديث عن أصحاب اليمين على أصحاب الشمال ؛ لأنَّ المقام مقام ترغيب وترهيب معا ، فآثر الترغيب بالتقديم في التقسيم تنويها بأهل الطاعة ، وتشريفا لأصحاب الخير ، فعمل أصحاب اليمين أشرف القسمين وهو المطلوب لله تعالى والمحبوب له والمقصود بالأصالة .
- أطال القرآن الكريم في الحديث عن مشهد أصحاب الشمال ؛ قصداً إلى تعميق إيحائه في نفوس المخاطبين ؛ ليكون أقوى على إثارة الرهبة ، وبعث مشاعر الخوف فيها ، تحقيقا للغاية المرجوة بالاستجابة لداعي الله

بالإيمان به .

- **يلفت سياق آيات هذا البيان الفريد إلى نوع بديع من الإيجاز بالحذف سُمِّي بالاحتباك، أخذاً من الحبك بمعنى الشّدِّ والإحكام ، أو " الحذف المقابلي "وهو أن يجتمع في الكلام متقابلان ، فيحذف من كلّ واحدٍ منهما مقابله لدلالة الآخر عليه، وقد سُمِّي "حبكا"؛ لأن الناقد البصير الخبير بطرق القول قد أحكم التعبير بمعرفة مواطن الحذف ، وما أضفاه المحذوف على الكلام من حسن ورونق ، فلم يطل ويترهل بذكر ما يمكن الاستغناء عنه [1].**

ف " ذكر " اليمين " أولا يدل على الشمال ثانيا ، وذكر " الوراء " ثانيا يدل على الأمام أوَّلاً " [2] ، وتقدير الجملة : " فأمَّا من أوتي كتابه بيمينه أمامه .. وأمَّا من أوتي كتابه وراء ظهره بشماله .. " ، وقد أشار البقاعي إلى سرِّ الذكر في الطرفين ، فقال : " وسرُّ ذلك أنه ذكر دليل المودة والرفق بالمصافحة ونحوها في السعيد ، ودليل الغدر والاغتيال في الشقي "[3].

كما أنَّ هناك احتباكاً آخر في قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾ وَيَنقَلِبُ إِلَىٰ أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ ﴾ ، ف " ذكر الحساب اليسير

(١) انظر البرهان في علوم القرآن : ٣ / ٢٠٠ ، والإتقان في علوم القرآن : ٣ / ١٨٢ .

(٢) نظم الدرر : ٨ / ٣٧١ .

(٣) نظم الدرر : ٨ / ٣٧١ .

الذي هو الثمرة والمسبب أوَّلاً يدل على حذف ضدّه ثانياً ، وذكر السرور في الأهل الذي هو السبب في الثاني يدل على حذف ضدّه ، وهو سبب السعادة، وهو الغمّ ومحاسبة النّفس في الأوّل ، فهو احتباكٌ في احتباك "[(١)]، وتقديره: " فأمَّا من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً ، وينقلب إلى أهله مسروراً ؛ إنَّه كان في أهله مغموماً مهموماً مشفقاً من العرض على الله تعالى، وأمّا من أوتي كتابه وراء ظهره فسوف يحاسب حساباً عسيراً صعباً، ويدعو ثبورا ويصلى سعيرا، إنّه كان في أهله مسروراً "، وسرُّ ذلك أنه ذكر أقلّ وأيسر ما لأهل الطّاعة ، وأغلظ ما لأهل المعصية، مع ما في الاحتباك من بلاغةً تتجسّد في أداء المعنى بأبلغ عبارةٍ وأوجزها، فحذف من كلٍّ نظيره حتى لا يطول الكلام بما يمكن الاستغناء عنه تعويلاً على فطنة السامع في إدراك المحذوف، وإحكام العبارة بتقديره في موطنه.

(١) نظم الدرر : ٨ / ٣٧٢ .

المبحث الثَّالث: الإقسام على تبدُّل أحوال الناس في الدّنيا والآخرة

قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ﴿١٩﴾ ﴾ .

لما ساق الله تعالى في الآيات السابقة أقسام الناس وأحوالهم عند العرض يوم القيامة، وذكَّر الإنسان المنكر للبعث، المكِّذب بقدرة الله على إخراجه، اتبعه هنا بالحديث عن دلائل هذا البعث وبراهينه في تغيُّر مخلوقات الله الكبرى، وأقسام الناس في هذه الحياة الدنيا وتنقُّلهم من حالٍ إلى حال حتى البعث والحساب ، وذلك تمهيداً لما يأتي بعده من آيات في المقطع القادم من اختلاف أحوال النّاس تجاه قبول القرآن الكريم ما بين مصدِّقٍ بما فيه ومُكذِّبٍ له ، ووفق ذلك كانت نتائجهم عند العرض على الله تعالى ، فالفاء المتصلة بكلمة " لا " قبل فعل القسم هي " للتعقيب ، فإنه تعالى لما أوجب الحور والبعث بقوله : ﴿ بَلَىٰ ﴾ فرّع عليه ردّ قوله وإبطال ظنّه "[1].

وقد افتتح هذا المقطع من السّورة بقسم عظيم ؛ تحقيقاً وتأكيداً لمضمون الخبر الوارد فيه ، حيث صُدِّر بفعل القسم صريحاً مسنداً إلى الله تعالى مسبوقاً بـ ﴿ لَآ ﴾ ، وهو أسلوب عرفته العرب في شعرها الجاهلي ، وقد جاء القرآن الكريم على نظام أسلوبهم وطريقة تركيبهم ، فجاء هذا الأسلوب في

(١) حاشية زاده على تفسير البيضاوي : ٨ / ٥٤٩ .

القسم في ثمانية مواضع من القرآن الكريم كلها جاء فعل القسم ﴿ أُقْسِمُ ﴾ مسنداً للحقِّ جلَّ جلاله [١]، فجاء في ابتداء سورتين هما قوله جلَّ جلاله : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ۝٢ ﴾ [سورة القيامة] ، وقوله جلَّ جلاله : ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ۝١ ﴾ [سورة البلد]، وقول الباري عزَّ شأنه: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ۝٧٥ ﴾ [سورة الواقعة] ، وفي قوله : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝٣٨ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ۝٣٩ ﴾ [سورة الحآقة] ، وفي قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ وَٱلْمَغَٰرِبِ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ ۝٤٠ ﴾ [سورة المعارج]، وفي قوله تعالى: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝١٥ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝١٦ ﴾ [سورة التكوير] ، وللعلماء في تفسير هذه الصيغة الأسلوبيّة عدة آراء :

قيل : إن ﴿ لَآ ﴾ صلة على عادة العرب [٢] ، فإنهم ربما تلفّظوا بـ " لا " من غير قصدٍ إلى معناها الأصلي ، بل لمجرد التوكيد وتقوية الكلام، والمعنى: أقسم بالشفق .. الخ ، كما في قوله تعالى : ﴿ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا

(١) مادة " القسم " في البيان القرآني تأتي في الدلالة على الأيمان الصادقة – حقيقة أو وهما – لذا لم يسند الفعل " أقسم " في القرآن الكريم إلى ضمير المنافقين ، بخلاف مادة " الحلف " فتستعمل في الحنث في اليمين والأيمان الكاذبة ، ولذا جاء الفعل " حلف " مسنداً غالباً إلى ضمير المنافقين في البيان القرآني للدلالة على كذبهم وحنثهم . انظر : الإعجاز البياني للقرآن: ٢٢١ – ٢٢٤ ، د . عائشة عبد الرحمن .

(٢) انظر المحرر الوجيز : ١٩٦٢ .

﴿ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾ ﴾ [سورة الحديد] ، ومنه قول امرئ القيس :

لا وأبيك ابنة العامريّ لا يدّعي القوم أنّي أفرّ [1]

والمعنى: وأبيك .

وقيل: إنها لام الابتداء دخلت على جملة اسمية من مبتدأ وخبر ، والمعنى " فلأنا أقسم .." فحذف المبتدأ واتصلت اللام بالخبر ، وأشبعت فتحة لام الابتداء فتولد منها الألف ، ويدل عليه قراءة " فلأقسم " ؛ فإن لام الابتداء لا تدخل على الجملة الفعليّة [2].

وقيل : إنّ ﴿ لَآ ﴾ نافية للقسم حقيقة ، أي لا أقسم بهذه الأمور العظيمة مع ما لها من دلالة على الإبداء والإعادة على هذا الأمر ؛ لأن المقسم عليه أجلّ منها وأظهر ، وأوضح من أن يحتاج إلى قسمٍ فهو في غنية عن الإقسام ، وعليه يكون الأسلوب خبراً لا إنشاء ، واختاره الزمخشري فقال : " والمعنى في ذلك : أنه لا يقسم بالشيء إلا إعظاماً له ، يدلّ عليه قوله تعالى : ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ ﴾ [سورة الواقعة] فكأنّه بإدخال حرف النفي يقول: إن إعظامي له بإقسامي به كلا إعظام "[3] واختاره البقاعي بقوله: " وكان ترك الحلف على ما هو ظاهر أبلغ من

(١) ديوان امرئ القيس : ١٥٤ .

(٢) انظر البحر المحيط : ٨ / ٢١٣ .

(٣) الكشاف : ٤ / ١٨٩ .

الحلف لما في ذلك الترك من تنبيه المخاطب على النظر والتأمّل "[١]، وقد ألمح الشيخ محمد عبده إلى وجه تأكيد القسم بنقيضه وهو النفي ، وإلى السِّرِّ البيانيّ للعدول عن عبارة " أقسم " بالإثبات إلى عبارة ﴿ لَآ أُقۡسِمُ ﴾ بالنفي ، فقال : " إنَّ ﴿ لَآ أُقۡسِمُ ﴾ عبارة من عبارات العرب في القسم ، يراد بها تأكيد الخبر ، كأنه في ثبوته وظهوره لا يحتاج إلى قسم ، ويقال : إنه يؤتى بها في القسم إذا أريد تعظيم المقسَم به ، كأنَّ القائل يقول : إنّي لا أُعظِّمه بالقسم ؛ لأنَّه عظيم في نفسه ، والمعنى على كلِّ حال على القسم " [٢].

وقيل : إنَّ ﴿ لَآ ﴾ نافية حقيقة ، تردّ كلاماً سابقاً يخالف المقسم عليه ، فقد حكى الله ههنا عن المشرك أنه ظنَّ أن لن يحور ، ويُقدِّر بعض المفسرين المنفي المحذوف بعد ﴿ لَآ ﴾ وتقديره هنا : " فلا صحة لما يقوله الكفار من إنكار البعث والنشور " ، ثم ابتدأ واستأنف القسم : ﴿ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ ﴾، يقول ابن قتيبة : " وأما زيادتها ﴿ لَآ ﴾ في قوله : ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ١٦ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ ﴾ فإنها زيدت في الكلام على

---

(١) نظم الدّرر : ٨ : ٣٧٢ ، تقول الدكتورة عائشة بنت عبد الرحمن بعد استقراء مواضع هذه العبارة في القرآن الكريم : ((وهذا الاستقراء صريح الدّلالة على أنّه سبحانه ليس في حاجة إلى القسم وأنّ نفي الحاجة إلى القسم تأكيدٌ له ، ومن مألوف استعمالنا أن نقول : لا أوصيك بفلان ؛ تأكيداً للتّوصية ، كما نقول : بغير يمين ؛ تأكيداً للثّقة التي لا نحتاج معها إلى يمين)) التفسير البياني للقرآن الكريم : ١ / ١٦٦ .

(٢) تفسير جزء عم : سورة البلد ، وانظر تفسير المراغي : ٣٠ / ٩٤ .

نية للرد على المكذبين ، كما تقول في الكلام : لا والله ما ذاك كما تقول ، لكان جائزا غير أن إدخالك ﴿ لَآ ﴾ في الكلام أولا أبلغ في الرد " [1] ، وقال الفرّاء رآدّاً القول بزيادة ﴿ لَآ ﴾ ومنتصراً لهذا الوجه : ((ولا يُبتدأ بجحدٍ ثم يُجعل صلةً على نيّة الطرح فلا يُعرف خبر فيه جحد من خبرٍ لا جحد فيه ، ولكن القرآن جاء بالرّد على الذين أنكروا البعث والجنة والنار ، ومثل لذلك بقولك : لا والله لا أفعل ذاك ، جعلوا (لا) وإن رأيتها مبتدأة ردّاً لكلام قد كان مضى ، ولو ألقيت (لا) مما يُنوى به الجواب ، لم يكن بين اليمين التي تكون جوابا والتي تُستأنف فرق ..)) [2].

وعليه يكون الله قد أقسم بثلاثة أشياء تتعلق بالليل وأحواله المختلفة:

أولها: ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴾ فأقسم بالشفق هو الحمرة التي تكون في الأفق بعد غروب الشمس إلى وقت صلاة العشاء الآخرة ، وهو علامة إدبار النهار .

ثانيها: ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ ﴾ فأقسم بالليل وما جمع من النجوم وما ضمّ من مخلوقات وعجائب لا يعلمها إلا الله ، فكل ما كان منتشرا في النهار فإن الليل يجمعه إذا أقبل بحيث يأوي كل شيء إلى مأواه ومسكنه ، وهو علامة إقبال الليل ، يقول الشّريف الرّضي: " وقوله تعالى :﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ ﴾ وهذه

(١) تأويل مشكل القرآن : ٢٤٦ ، وانظر ومغني اللبيب : ٣٢٨ ، ومفاتيح الغيب : ٣١ / ١٠٩.
(٢) معاني القرآن : ٣ / ٢٠٧ .

استعارةٌ ، ومعنى " وَسَق " ههنا أي ضم وجمع ، فكأنَّه يضم الحيوانات الإنسيَّة إلى مساكنها ، والحيوانات الوحشيَّة إلى موالجها ، والطيورَ إلى أوكارها ومواكنها، فكأنه ضمَّ ما كان بالنّهار منتشراً ، وجمع ما كان متبدِّداً متفرِّقاً، والأوساق مأخوذةٌ من ذلك ؛ لأنَّها الأحمال التي يُجمع فيها الطَّعام وما يجري مجراه ، ويقال : طعامٌ موسوقٌ ، أي مجموعٌ في أوعيته ، وقد قيل : إنَّ معنى " وَسَق " أي طَرَد ، والوسيقة : الطَّريدة ، فكأنَّ الليل يطرد الحيوانات كلها إلى مثاويها ، ويسوقها إلى مخافيها "[(١)].

ثالثها :﴿ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ ﴾ ثم أقسم بالقمر إذا تكامل ضوؤه في منتصف الشهر ، فالهلال يتزايد كل ليلة حتى يتكامل ويصير بدراً متلألئاً ، ثم يأخذ في التناقص مرة أخرى .

وحسن الترتيب ظاهر بين هذه الأشياء المُقسم بها فأوَّل الليل غروبُ الشمس وما يكون في مغربها من حمرة الشَّفق ، ثم يُذهب الشَّفق ويغلبه الليلُ، ثم يعقبه ظهور القمر وهو آية الليل .

وتتلخص أغراض القسم عند البلاغيين في أمرين رئيسين:

أولهما : تعظيم المقسَم به :

فقَسَمُ الله – جلَّ ذكره – بالشَّفق ، والليل وما حواه ، والقمر إذا اكتمل، دون غيرها من مخلوقاته ؛ تنبيهٌ على شرفها وأهميتها ، وتعريضها للعبرة والعظة، فهي مما تجب العناية بها والإقبال عليها ليتأمل المتدبِّر لكتابه الأسرار العظيمة

(١) تلخيص البيان في مجازات القرآن : ٣٦٢ .

الكامنة في هذه الآيات الكبرى التي باينت بها غيرها من جنسها، "فإن هذا إذا أدبر خلفه الآخر، يتعاقبان لمصالح الخلق ، فإدبار النهار آية، وإقبال الليل آية، وتعقّب أحدهما للآخر آية، والشّفق الذي هو متضمّن للأمرين آية"[1]، وكلُّ ذلك متضمِّن الدلالة على ربوبية الله تعالى ووحدانيته وكمال صفاته وبالغ قدرته وبديع صنعته ، وليُعلم أن الذي خصّها بذلك خالقها العظيم وهو قهَّارٌ واحد ، فالإقسام بهذه المصنوعات في الحقيقة إقسام بربوبيته وصفات كماله ، وفي تعظيم الصَّنعة تعظيم لصانعها سبحانه .

وقد أشار ابن أبي الإصبع المصري إلى جمال التزام السين قبل القاف التي جاءت في فاصلة كلتا الآيتين ﴿ وَٱلَّيۡلِ وَمَا وَسَقَ ١٧ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ١٨ ﴾ وسماه باب " الالتزام " بحيث " تُعجز الفصحاء أشدّ تعجيز ؛ لمجيئها سهلة منسجمةً كما ترى ، فسبحان المتكلّم بهذا الكلام "[2] .

كما أن أسلوب القسم الإلهيّ وبهذا الطول والتعدّد مع جمال الفاصلة القرآنيَّة يقوم بدور التهيئة النفسية للمخاطبين فيجذب فكرهم ويثير شوقهم ويستحوذ على انتباههم فيرهفوا أسماعهم ويستجمعوا حواسهم لتلقِّي جواب القسم في لهفةٍ وشوق .

وثانيهما : تأكيد المقسم عليه (جواب القسم) :

وهو هنا قوله تعالى : ﴿ لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ١٩ ﴾ ، فالآية تشير إلى

(١) التبيان في أيمان القرآن : ١٧٧ .

(٢) بديع القرآن : ٢٢٧ – ٢٢٩ ، وانظر المصباح في المعاني والبيان والبديع : ١٧٧ .

البعث للجزاء والحساب، حيث أراد لتركبنّ معشر الناس دواهي عظيمة من ابتداء الوجود وحتى الموت، ثم البرزخ ، ومن بعده البعث والعرض والجزاء يوم القيامة حيث ستلاقون أحوالاً بعد أحوال ، كلّ حالٍ مطابقة لأختها في الشّدّة والهول ، فمن قرأ بضم الباء ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ للجمع يكون الخطاب للناس كلهم وخصوصاً المخاطبين به من كفار مكة المنكرين للحشر والمعاد ، وكذا من قرأ بفتح الباء ﴿ لَتَرْكَبَنّ ﴾ على أنه خطابٌ للإنسان المذكور في قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ ﴾، والمعنى للناس والإنسان واحد: " لتركبنّ أيها الإنسان حالاً بعد حال ، من النطفة إلى العلقة ، إلى المضغة ، إلى كونه حيّا ، إلى خروجه إلى هذه الدار ، ثم ركوبه طبق التمييز بين ما ينفعه ويضرّه ، ثم ركوبه بعد ذلك طبقاً آخر وهو طبق البلوغ ، ثم ركوبه طبق الأشدّ ، ثم طبق الشيخوخة ، ثم طبق الهرم ، ثم ركوبه طبق الموت وشأنه، ثم ركوبه طبق ما بعده من البرزخ ، وركوبه في أثناء هذه الأحوال أطباقا عديدة ، لا يزال يتنقّل فيها حالا بعد حال إلى دار القرار، فذلك آخر أطباقه التي يعلمها العباد، ثم يفعل الله – سبحانه – بعد ذلك ما يشاء"[(١)]. وهذا القول أقوى وعليه جمهور

(١) التبيان في أيمان القرآن : ١٨١، وقيل إنه على قراءة فتح الباء الخطاب لرسول الله خاصة وله ثلاثة معانٍ: لتركبنَّ يا نبينا طبقاً عن طبق من السماء وذلك ليلة الإسراء، أو لتصعدنّ منزلة بعد منزلةٍ حتى تنتهي إلى محل القرب من الله تعالى ، أو لتركبنَّ حالا بعد حالٍ من الأحوال التي عاشها رسول الله واختارها له ربه في الدنيا من الهجرة والجهاد والنصر والغنى والفقر إلى أن بلغ ما بلّغه الله إياه . انظر القراءتين ومن قرأ بهما في علل القراءات: ٧٦١/٢ .
وقيل : ليست " الباء " للخطاب ، بل للغيبة عن السماء ، والمعنى : " لتركبَنَّ السماءُ عند =

المفسرين .

والبعث من أغرب الأشياء وأعجبها على عقول الكفار ، وقد صوَّر القرآن الكريم استنكارهم له واستهزاءهم برسول الله عند سماعهم لأمر البعث والنّشور منه في غير موضع من كتابه العظيم ، منها قوله تعالى : ﴿ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ ﴾ [سورة المؤمنون] ، وقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُم بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [سورة السجدة] ، بل أقسموا بالله على إنكاره ونفيه فقال تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ ﴾ [سورة النحل] ، وهكذا لما كان المقصود بالخطاب في آيات هذا المقطع القوم المكذبين بالبعث والمعاد جاءت آياته مؤكّدة بالقسم أوَّلاً وهو الغاية في أدوات التوكيد وطرق التحقيق ،

= قيام الساعة أحوالاً متعددة من الانشقاق والانفطار والطّيّ ، وكونها كالمهل مرّة ، وكالدِّهان مرَّةً ، وموارها وتفتّحِها وغير ذلك من حالاتها" . انظر تفسير الطبري: ١٢/٥١٥ .

وقُرئ أيضا بالياء ﴿ لَيَرْكَبُنَّ ﴾ فيكون فيه التفات من خطاب الإنسان إلى الغيبة (انظر: حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي: ٩ / ١٥٩، وروح المعاني: ١٠٦/٣٠). وذلك يُحدث في النفس حركة الانتباه قصداً ليتقرَّر فيها ما تلتفت إليه تنشيطاً لداعي التّأثّر به.

ثم بهذه المؤكِّدات " اللام ، ونون التوكيد الثقيلة " في جواب القسم ثانياً ؛ لدفع الشكِّ والإنكار من نفوسهم ، وزيادةً في تأكيد إمكان حدوث المقسم عليه ، فازداد الأمر تهويلاً وتخويفاً وتعظيماً ؛ لتنبيههم من غفلتهم عن مشاهد هذا الكون ، وما تُذكِّر به من البعث والنّشور ، فجاء نظم الأسلوب في غاية القوّة والفخامة لمطابقته لمقتضى الحال .

والقسم في هذه الآيات يؤكّد ظاهرةً بلاغيَّة في أسلوب القسم في القرآن الكريم كله ، وهي تلك العلاقة والتّناسب بين المقسم به والمقسم عليه ، فإن الأشياء المقسم بها دالة على قدرة الله تعالى على الإعادة والحشر ، إذ الأمور المقسم بها هنا تدلّ على تغيّر الكون من حالٍ إلى حال ومن هيئة إلى هيئة من خلال آيتين متعاقبتين هما " الليل والنهار " فالليل يأتي بعد النهار ، وأول أحوال الليل الشفق وهو حالة تأتي في أعقاب غروب الشّمس بحيث تكون مخالفة لما قبلها وهو ضوء النهار ولما بعدها وهو ظلمة الليل ، ثمّ تتغيّر هذه الحالة إلى الليل المظلم الذي يكون في ظلامه أشد وأشمل من الشفق ، وأحوال الحيوانات في الليل الذي تجتمع فيه لتنام تختلف عن أحوالها في النهار من حيث التفرّق واليقظة ، ثم يتغير الحال من الظلام إلى نور يشع في آفاق الدنيا من سطوع القمر وظهور ضوئه ، والقمر يكتمل بعد نقصان ، وتغيُّر هذه الأحوال المشاهدة وقدرة الله عليها بانصرام أحداهما واتصال الأخرى بها حسب المصالح ومقتضى الحكمة دليل مناسب وبرهان ملائم مع على قدرة الله على المقسم عليه ، وهو تنقّل الناس في هذه الحياة الدنيا من حالٍ إلى حالٍ وصولاً إلى المعاد والبعث واستعداداً للحياة الآخرة ، ونزول الشدائد والأهوال

يوم القيامة متغيرة في مراتبها وتأثيرها ومتنوِّعة في أحوالها ، فالمقسم به والمقسم عليه كلاهما دالٌّ على ربوبيّة الله وقدرته على تغيير الكون وتصريف العالم ، وعلى صدقه في أمر البعث والمعاد الذي أنكره المخاطبون ، فكما أنَّ حكمه في المخلوقات الكبرى لهذا الكون لا يتخلّف فإنّ مشيئته ببعثهم نافذة، وقضاءه بحسابهم يوم القيامة لا يردّ وهم من مخلوقاته الصغرى ، فجواب القسم جاء في غاية التناسب والارتباط مع المقسم به وملائمٌ له ملائمة بديعة، فهما يتصلان اتصال الدليل بالمدلول والمقدمة بالنتيجة ، يقول الطاهر ابن عاشور: " ومناسبة الأمور المقسم بها هنا للمقسم عليه ؛ لأنّ الشفق والليل والقمر تخالط أحوالاً بين الظّلمة وظهور النّور معها أو في خلالها ، وذلك مناسب لما في قوله ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ من تفاوت الأحوال التي يتخبّط فيها النّاس يوم القيامة أو في حياتهم الدّنيا أو من ظهور أحوال خيرٍ في خلال أحوال شرٍّ أو انتظار تغيُّر الأحوال إلى ما يرضيهم إن كان الخطاب للمسلمين خاصّة ، ولعلّ ذكر الشّفق إيماء إلى أنّه يشبه حالة انتهاء الدنيا ؛ لأنّ غروب الشمس مثل حالة الموت ، وأنّ ذِكْر الليل إيماء إلى شدّة الهول يوم الحساب ، وذِكْر القمر إيماء إلى حصول الرّحمة للمؤمنين "[1].

(١) التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٢٦ .

المبحث الرابع: توبيخ المشركين على كفرهم

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٢٥﴾ ﴾ .

لما كان التأمّل في المقسم به والمقسم عليه الذي ذُكِر في آيات المقطع السابق فيه أعظم الأدلة على ربوبية الله ووحدانيته وكماله وعظيم قدرته ، وأعظم البراهين على صِدقه سبحانه وصِدْق أنبيائه ورسله ، ومن كان كذلك كان لا محالة قادرا على البعث والنّشور ، أعقب الله ذلك بتساؤلٍ واستفهامٍ عن السبب في إحجام الكفار عن الإيمان بالله والتصديق بالبعث والنّشور بعد الموت مع قيام الدّلائل ووضوح البراهين على وقوعه ، وكأن المراد بيان أنّ كلّ شيء من مخلوقات الله الكبرى والصغرى منقاد مستسلم لله فلا ينبغي للإنسان أن يشذّ عن ذلك، فقال جلَّ جلاله تعجيباً من أمرهم – وهو أدرى بحالهم : ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾، وهذا التركيب مشتمل على اسم الاستفهام ﴿مَا﴾ بمعنى : أيّ شيءٍ ، واللام للاختصاص ، ودخول الفاء الدالة على السَّببيَّة على اسم الاستفهام الغرض منه : بيان استتباع ما بعدها من الإنكار والتعجيب على ما قبلها من أحوال يوم القيامة وأهوالها المستوجبة للإيمان والسجود وترتّبه عليه ، وهي – أي الفاء – مفصحة عن محذوفٍ دلّ عليه ما تقدّم فهي رابطة لجواب شرطٍ مقدّر ، وتقديره : " إذا كانت تغيُّرات يوم القيامة العلويَّة والسُّفليَّة هذا حالها كما ذُكِر لكم ، وكان المقسَم به والمقسَم عليه مشتملين على أعظم

الدَّلائل – لمن أحسن التّدبّر – على ربوبيّة الله ووحدانيته والتَّصديق بوقوع المعاد والقدرة على البعث ، فما المانع الذي يمنع المشركين من الإيمان بالله وتصديق رسوله في أمر البعث والجزاء مع تعاضد موجباته ؟ ، فقد ظهرت الحجّة وزالت الشّبهة "، فالاستفهام هنا استفهام إنكاري توبيخيّ لمن لم يؤمن من مشركي العرب بعد ظهور هذه الآيات المستلزمة لمدلولها أتمّ استلزامٍ ، يقول الشهاب الخفاجيّ : " هو استفهام إنكاريّ ومثله يذكر بعد ظهور الحجّة وهو هنا كذلك ؛ لأنّ ما أقسم به من التغيّرات العلوية والسفليّة يدلّ على خالقٍ عظيم القدرة فيبعد ممن له عقل عدم الإيمان به والانقياد له كما فصّله وأطال فيه " (١).

"والإنكار في هذا الاستفهام مسلّط أوّلاً على سبب عدم الإيمان ، ثم جعل هذا الإنكار السّببي وصلة لإنكار عدم الإيمان نفسه مع طريق الكناية اللطيفة " (٢).

والمتأمِّل في النّظم الكريم يلحظ أنَّه عدل في سياق خطاب المشركين عن الخطاب ﴿ لَتَرْكَبُنَّ ﴾ إلى ضمير الغيبة ﴿ لَهُمْ ﴾ على الالتفات ؛ فخاطبهم أوَّلاً في مقام الوعظ والتهديد الذي يتناسب معه الخطاب ويكون أشدّ بلاغا وأثرا ، ولكن لما أراد توبيخهم عدل إلى ضمير الغيبة فأعرض عن خطابهم وحكى لغيرهم سوء صنيعهم ؛ تحقيرا لهم على كفرهم وإنكارهم ، وتعنيفاً لهم على عنادهم واستكبارهم ، وللحطِّ من شأنهم ، وإشعارهم أنهم ليسوا بمكان

(١) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي : ٩ / ٤٥٢ .

(٢) التفسير البلاغيّ للاستفهام في القرآن الحكيم : ٤ / ٣٥٣ ، د. عبد العظيم المطعني .

حتى يخاطبوا ، فهم ممّن لا يعتدّ بهم ، وفيه تحفيزٌ للقارئين والسامعين إلى التّعجّب من أحوال هؤلاء المشركين الذين ظهرت لهم الأدلّة كالشمس في رابعة النّهار ثم لا يؤمنون ، ويضاف إلى ذلك أن عدم إيمانهم وعدم خضوعهم للقرآن وتولّيهم لمّا كان إعراضاً كان من المناسب أن يُغيّر الأسلوب من الخطاب إلى الغيبة ؛ لتكون الغيبة في لفظ ﴿ فَمَا لَهُمْ ﴾ مشاكلة لإعراضهم عن دين الله واستكبارهم عن كلام الله، وما عدم الإيمان بالله وبرسوله وبكلامه إلا غيبة عنها، فالالتفات وخروج الأسلوب عن النمط المعهود من شجاعة العربية التي تفوّقت بها على ما سواها .

وصيغة المضارع ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ دالَّة على التّجديد والحدوث ، أي كيف يستمرون على عدم إيمانهم في كلّ الأوقات ، فبقدر ما تتابع رسول الله على إقناعهم بمختلف الوسائل والطّرائق فقد تتابعوا على رفض الإيمان وأصرّوا على كفرهم، " وجعل الفعل غير متعلّق بمفعول كناية عن ذكره متعلّقاً بذلك المفعول "[1]، ولدلالة السياق عليه وتقديره : فما لهم لا يؤمنون بالبعث والجزاء أو فما لهم يؤمنون بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من القرآن.

ثم ضاعف في الإنكار عليهم وتشنيع حالهم فوصل بالواو جملة قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنُ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ على جملة الاستفهام الإنكاري التّوبيخيّ قبلها ، فإذا كانت الآية السابقة تستفهم عن المانع الذي يمنعهم من الإيمان بالله تعالى مع علمهم بقدرته على بعثهم ومجازاتهم ، وتعاضد كلّ

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم : ٤ / ٣٥٣ .

البراهين على الإيمان به ، فإنّها تستفهم هنا أيضاً عن المانع الذي منعهم من السجود إذا تُلي عليهم القرآن الكريم لدعوتهم وتبليغهم مع أنَّه أعظم كلام بليغٍ يسمعونه .

و" السجود " هنا قد يكون سجوداً حقيقيًّاً فقد كان من عادة العرب السجود عند تعظيم أي كلام بليغ يسمعونه من شاعر أو ناثر ، ويحتمل أن يكون كناية عن الخضوع لله تعالى وطاعته والاستكانة له عندما يُتلى عليهم كلامه الذي أُنزل لإخراجهم من الظّلمات إلى النّور مع وضوح دلالاته وظهور معانيه ، والاستفهام هنا يحمل أيضاً معنى الإنكار والتوبيخ لهم لعدم سجودهم للرحمن عند سماع كلامه ، فلا هم يتأثرون عند سماع آياته وينقادوا له بل كانوا يصفِّقون استهزاءً به ، بينما لو قُدِّر للجبل أن ينزل عليه هذا الذّكر العظيم ﴿لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [سورة الحشر : ٢١] ، وفي أسلوب الاستفهام هنا إلجام للخصم بالحجّة ؛ لأنهم لا يستطيعون الإجابة لو أجابوا ، فالعرب أرباب الفصاحة وسادة البلاغة وبلغوا أقصى المراتب فيها ، فلا بدّ أنهم عرفوا أن القرآن الكريم معجزة إلهيَّة خارجة عن طوق البشر ، وأدركوا ما خُصّ به نظمه وأسلوبه من الأسرار البلاغية والنكات البيانية العامرة ، فكان يجب في ميزان العقل أن يعلموا صدق مبلِّغه عليه الصلاة والسّلام في دعوى الرّسالة ، ويلاقوا كتاب الله بالتقدير والتعظيم لا بالسخرية والإعراض .

ويرسم الفعل المضارع ﴿ لَا يَسْجُدُونَ ﴾ هيئة تتابع تلاوة القرآن المعجز على أسماعهم حين نزوله منجَّماً وتتابع إعراضهم وصدودهم عنه .

وبعد التَّعجيب من عدم إيمانهم والإنكار عليهم أضرب بحرف الإضراب الانتقالي ﴿ بَلِ ﴾ ليأخذ في بيان حقيقة السبب في استمرار الكفار على الكفر والطَّعن في القرآن الكريم ، وأنّ التّكذيب والعناد من طبيعتهم المتأصّلة في نفوسهم ، فقد مُلئت دواخلهم بالعناد والاستكبار ، فحال ذلك دون إيمانهم وإذعانهم لما في القرآن الكريم من أحكام وما ذكره من أحوال يوم القيامة وأهوالها مع تحقُّق موجبات تصديقه ، حيث قابلوه بالتكذيب بدلاً من التصديق فقال تعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ فأخبر عن تكذيبهم بالفعل المضارع ﴿ يُكَذِّبُونَ ﴾ ، وفي سورة البروج بعدها عدل إلى المصدر فقال تعالى : ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي تَكۡذِيبٍ ﴿١٩﴾ ﴾ ، ولهذا التنوع بين الفعلية والاسمية في ختام الآيتين مع أن الموضوع واحد وهو الإخبار عن كفر الكافرين سرّ لفظيّ وآخر معنويّ ، فأما اللفظيّ فلمراعاة الفواصل بين السُّورتين بما يحقق التلاؤم الصوتيّ بين الآيات مع صحة اللفظ وجودة المعنى ، وذلك مظهر من مظاهر الإحكام في القرآن الكريم ، وتيسير الله آيه للذكر والحفظ ، فخواتيم آيات هذا المقطع قبلها في سورة الانشقاق جاءت على وزن "يفعلون "، وفي سورة البروج جاءت فواصلها مردوفة بياء أو واو [(١)].

وأما السِّرُّ المعنوي فذلك راجعٌ لدلالة الفعل المضارع على التجدُّد وحدوثه في المستقبل، بينما الاسم يأتي في دلالته على الدوام والاستمرار

(١) انظر: درة التنزيل: ١٣٥٣/٣، والبرهان: ٢٤٧ للكرماني ، وبصائر ذوي التمييز: ١/ ٥٠٩، وفتح الرحمن : ٣٢٧ .

والثبات، " .. فآية الانشقاق تقدمها وعيد أخروي كله لم يقع بعدُ ، وهم مكذبون بجميعه ، فجيء هنا باللفظ المقول على الاستقبال – وإن كان يصلح للحال – ليطابق الإخبار ؛ لأنه عما يأتي ولم يقع بعد ، فجيء بما يطابقه في استقباله ، فأما آية البروج فقد تقدمها قوله تعالى : ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ ﴾ ، وحديث هؤلاء وأخذهم بتكذيبهم قد تقدم ومضى زمانه ، وهؤلاء مستمرون على تكذيبهم فقيل : ﴿ فِي تَكْذِيبٍ ﴾ ، وجيء بالمصدر ليحرز تماديهم ، وأن ذلك شأنهم أبداً فيما أخبرهم به ، وفيما يدعوهم إليه وينهاهم عنه ، ولفظ المصدر أعطى لما قصد من هذا من لفظ المضارع ، فجيء في كل من الآيتين بما يناسب " [1].

فسياق الآيات في سورة الانشقاق يقتضي التعبير بالفعل المضارع ؛ لأنها مبناها من أوَّلها يحكي أحداثاً تقع في المستقبل ، فجاءت مبدوءة بأداة الشرط ﴿ إِذَا ﴾ التي للمستقبل مع تكرارها ، كما عُبِّر بـ ﴿ سَوْفَ ﴾ التي للاستقبال في بعض آيات هذه السورة ، كما أنَّ قوله تعالى : ﴿ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ ﴾ يتضمن الوعيد بأمر غيبيٍّ مستقبليٍّ ، كما أنّ نفي الإيمان عنهم ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ ﴾ ونفي الخضوع عنهم عند قراءة القرآن ﴿ لَا يَسْجُدُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ كلّه جاء بصيغة المضارع ، فكان من التناسب والتلاؤم أن يُعبّر بالفعل المضارع ﴿ يُكَذِّبُونَ ﴾

(١) ملاك التأويل : ٢ / ١١٤٢ .

المفيد للاستقبال والمشعر بتجدّد الكفر وحدوثه منهم عناداً وليس اعتقاداً ، ويمكن أن يكون التّعبير بالمضارع لأجل استحضار الذّهن تيك الحالة الشّنيعة والصُّورة القبيحة من التّكذيب والكفران ، يقول ابن الأثير : " اعلم أن الفعل المستقبل إذا أُتي به في حالة الإخبار عن وجود الفعل كان ذلك أبلغ من الإخبار بالفعل الماضي ؛ وذلك لأنّ الفعل المستقبل يُوضّح الحال التي يقع فيها ، ويستحضر تلك الصّورة ؛ حتى كأنّ السّامع يشاهدها ، وليس كذلك الفعل الماضي " [(١)] ، كما طرح ابن الأثير سؤالاً مضمونه : إنّ الفعل الماضي – أيضاً – يتخيّل منه السّامع ما يتخيّله من المستقبل ؛ فأيّ بلاغةٍ في الصّيرورة إليه ؟ ، فقال مجيباً : " إنّ التّخيّل يقع في الفعلين معاً ، لكنّه في أحدهما – وهو المستقبل – أوكد وأشدّ تخيّلاً ؛ لأنّه يستحضر صورة الفعل ، حتى كأنّ السّامع ينظر إلى فاعلها في حال وجود الفعل منه " [(٢)] .

والذي يسترعي الانتباه في نظم هذه الآية الإظهار في موضع الإضمار ؛ إذ التّعبير فيها جاء بالاسم الموصول وصلته ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ بدلاً من ضمير الغيبة ﴿ هُمْ ﴾ كبقية آيات هذا المقطع التي جاءت كلها بضمير الغائب ، ﴿ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ ﴾ ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؛ وذلك للتشنيع عليهم بتسجيل كفرهم ونسبتهم إليه ، وللإشعار بما هو العلة في عدم إيمانهم وعدم خضوعهم للقرآن الكريم ،

(١) المثل السائر : ٢ / ١٩٤ .

(٢) المثل السائر : ٢ / ١٩٦ .

فما استمرّوا على التّكذيب إلا لتأصّل الكفر فيهم ، وذلك أقوى في سياق توبيخهم.

وترك ذكر المفعول به للفعل ﴿ يُكَذِّبُونَ ﴾ ؛ لأنَّ القصد إلى نفس فعل التكذيب ، ولما في ذلك من الإيجاز والاختصار مع ظهور القرائن ، وإرادةً للعموم والشمول أي يكذّبون بالقرآن وبمن قرأه عليهم وهو محمد صلى الله عليه وسلم .

وقبل الانتقال لبيان عقابهم في قوله تعالى : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ جاء بجملة اعتراضيَّة هي قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ ويلوح من سياق إخبار الله تعالى عن سوء طويّتهم وعدم خفاء حالهم عليه – جلّ جلاله – معنى التّهديد والوعيد والإنذار لما سيلاقونه من عقابٍ عند لقائه؛ إذ كفرهم ليس سببه عدم وضوح الأدّلة والبراهين ، بل هو الكبر والعناد والغرور المتأصّل في نفوسهم ، ومقت الإسلام وبغضه الذي يُخْفُونه في صدورهم مع علمهم بأنّ القرآن حقّ كلّه ، والعدول عن ضمير المتكلم " أنا " – وهو الأصل – إلى استهلال الآية بلفظ الجلالة ﴿ وَاللَّهُ ﴾ وهو العلم الجامع لكلِّ الصِّفات مشعرٌ بذلك ؛ لما فيه من إدخال الرّعب والفزع في نفوسهم ، وتربية المهابة في قلوبهم ، سرعة للامتثال ، ورغبة في التحذير والتّخويف ، فالاسم الظّاهر – في هذا المقام – يفعل ما لا يفعله الضّمير ، وفي التعبير باسمية الجملة دلالة على ديمومة وثبات اتصاف الله عز وجل بعلمه بما يُضمرونه في نفوسهم من التَّكذيب والبغضاء على جهة الدوام والاستمرار في جميع الأحوال،

وقد شُبِّهت قلوب صناديد الكفّار وما يُضمرونه فيها من تكذيبٍ وعنادٍ وحسدٍ وعداوةٍ ، وما يخفونه فيها من أنّ القرآن حقّ كلّه ليكون إعراضهم عنه – مع تواصيهم على ذلك – مقبولاً عند أتباعهم ، بالوعاء يُحفظ فيه الزَّاد ويُجمع فيه لئلا يخرج منه شيء مع ما يُشعر به الإيعاء من التّقتير " لا تُوعي فيُوعي الله عليك " ، ثم اشتق من الوعاء الفعل المضارع ﴿ يُوعُونَ ﴾ على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية ، يقول الشريف الرضي : " وهذه استعارة ، والمراد بها ما يُسرُّون في قلوبهم ، ويكنُّون في قلوبهم ، يقول القائل : أوعيتُ هذا الأمر قلبي ، أي جعلتُه فيه كما يجعل الزاد في وعائه ، ويُضمّ المتاع في عيابه ، فالقلوب أوعيةٌ لما يجعل فيها من خير أو شرٍّ ، وعلم أو جهل ، أو باطل أو حقّ " [(١)].

وقد التفت الفراء إلى النسق الصوتي في هذه الآيات بتوافق الفواصل في آخر آياتها ، وهو ما يحرص عليه النظم القرآني فقد يعدل عن لفظ إلى آخر ؛ حرصاً على استقامة الوزن وتوافق النغم، فقال : " وقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ الإيعاء ما يجمعون في صدورهم من التكذيب والإثم والوعي ، لو قيل: " والله أعلم بما يَعُون " لكان صواباً، ولكنه لا يستقيم في القراءة "[(٢)]، ومراده بالاستقامة في القراءة التوافق الصوتي لهذه الفاصلة مع ما قبلها من الآيات، فلفظة " يعون " لا تستقيم مع رءوس الآيات الأخرى ﴿ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٠﴾ لَا يَسۡجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾ ، بخلاف لفظة ﴿ يُوعُونَ ﴾ فإنها أكثر

(١) تلخيص البيان : ٣٦٣ .

(٢) معاني القرآن :

اتفاقاً من لفظة " يعون " .

ثم بنى على هذا التهديدِ والوعيدِ التّهكّمُ والسّخريةُ بهم فقال : ﴿ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ فأمر نبيَّه الكريم أن يُبشِّرهم بعذابٍ أليمٍ موجع ، والأصل في " البشارة " أن تُستعمل في الأمور السَّارَّة كقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَٰنَ بِالْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ ﴾ [سورة يس] ، لا بما فيه الهلاك والعذاب ، ولكن القرآن الكريم استعمله أيضا في الجانب المضاد لذلك على سبيل الاستعارة بقرينة أنه علَّق بالفعل " عذابٌ أليمٌ " ، فوضع الفعل " بشِّر " مكان " أنذر " ؛ تهكّماً وسخريةً بالمتحدث عنهم وهم كفار مكة أولئك المعرضون المعاندون؛ للحطِّ من أقدارهم وشأنهم إن كانت لهم منزلة تُذكر ، " وإعلاماً بأن الغضب قد بلغ منتهاه "[1]، ولما لهذه الاستعارة التهكمية " العنادية " من صلة بالنفوس البشرية والتعمق في أغوارها البعيدة ، فيكون أردع في الزجر، وأشدّ وأنكى في مقاومة الأعداء، وقد تكرّرت هذه الاستعارة التهكمّيّة في عدّة مواضع من القرآن الكريم، فقال عنها الزمخشري : " فهذا من العكس في الكلام الذي يقصد به الاستهزاء الزائد في غيظ المستهزأ به وتألمه واغتمامه ، كما يقول الرجل لعدوه : أبشر بقتل ذريتك ونهب مالك .." [2] .

(١) نظم الدرر : ٨ / ٣٧٤ .

(٢) الكشاف : ١ / ٢٥٥ .

ويرى الألوسي في ذلك وجهاً آخر قال عنه: " وجوّز أن يكون ذلك على تنزيلهم لانهماكهم في المعاصي الموجبة للعذاب، وعدم استرجاعهم عنها، منزلة الراغبين في العذاب حتى كان الإخبار به تبشيرا ، وإخبارا بسارٍّ " [(١)].

والوعيد لهم هنا جاء على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلَّم فهو أمرٌ يفيد مع التَّهكّم والسخرية بهم الإنذار والوعيد بعذاب أليم شديد يُغيّر أبشارهم، يدلّ لعظمه وشدته تنكير لفظة العذاب في قوله : ﴿ بِعَذَابٍ ﴾ ففيه تعظيم شدة هول هذا العذاب الموجع ، والذي وصفه بصيغة من صيغ المبالغة هي قوله : ﴿ أَلِيمٍ ﴾ أي " مؤلم " ، وهو في الحقيقة صفة المعذب ، فالأليم ليس هو العذاب ، لكن يوصف به المصدر " العذاب " على سبيل المجاز العقلي ؛ حيث جعل وصف الشيئ لقوة تلبسه به كأنه عينه ، فأسند إليه ما يسند إلى الفاعل ؛ مبالغة لتهويله وتفخيمه ، فعِظَمُ العذاب لعِظَم الذّنب وهو الكفر بالله تعالى والإعراض عن آياته .

وزيادةً في إدخال الحزن على الكفَّار فإنّه لما انتهى من توبيخهم ببيان عاقبتهم والمآل الذي سيؤولون إليه في الآخرة ، ناسبه بعد ذلك ذِكْر ببيان حال المؤمنين من خلال الموصول وصلته المسبوق بالاستثناء ، والذي أفاد استثناء المتصفين بمضمون جملة الصِّلة ومعطوفها ؛ فالحكم على المؤمنين هو نقيض الحكم الثابت للمستثنى منه فقال تعالى :﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٢٥﴾ ﴾ ومثلها قوله تعالى : ﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ

(١) روح المعاني : ٢٠ / ٥٦ .

﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة التين] ، فكلتا الآيتين جاءت بإثبات عظيم الأجر وكبير الثواب الدائم لهم ؛ لأنهم صدقوا بإيمانهم بالله تعالى وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشرّه ، ثم أتبعوا ذلك بالأعمال الصالحة من فعل المأمورات وترك المنهيّات فاستحقوا أن يُعطوا أجرهم ﴿ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ أي غير منقوص ولا منقطع على أنّ ﴿ مَمْنُونٍ ﴾ مفعول من " منَّ الحبل " إذا قطعه فهو منين أي مقطوع ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ ﴾ [سورة الواقعة] ، وقيل معناه : غير مُكدّرٍ بالمنِّ عليهم فهو أجرٌ لا يشوبه كدر في ذاته ولا كدر أن يمنّ على الذي يُعطاه والمأجور به ، والتعبير القرآنيّ يشمل كلا المعنيين ويجمع بينهما ، فأعظم صفات الثواب أن يكون دائماً مستمراً غير منقوص ولا مقطوع ، ولا منغصاً ولا مكدَّراً بالمنّة ، فدقّة التعبير القرآنيّ جمعت كل هذه المعاني بخلاف ما لو عبّر بلفظة غير ذلك لأفاد معنى دون آخر وهذا نهاية الوعد والترغيب ، وتنكير ﴿ أَجْرٌ ﴾ وتنوينه فيه دلالة على تفخيم كنه هذا الثواب وتعظيم منزلته عند الله تعالى وتكثيره.

والفرق بين الآيتين هو إثبات الفاء وتركها ، فجاءت آية الانشقاق دون ذكر الفاء ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾؛ لأنَّ الاستثناء منقطع من الضمير المنصوب ﴿ فَبَشِّرْهُم ﴾ العائد إلى الكفَّار ، والاسم الموصول عبارة عن المؤمنين ، ولا شكَّ أن الذين آمنوا ليسوا من جنس الكفَّار، والمعنى: لكن الذين آمنوا وعملوا

الصالحات لهم أجرٌ دائمٌ مستمر غير ممنون، " والاستدراك بحرف ﴿إِلَّا﴾ الذي بمنزلة (لكن) لمجرّد المضادّة لا لدفع توهّم إرادة ضدّ ذلك ، ومثل ذلك كثير في الاستدراك ، وأما تعريف بعضهم الاستدراك بأنّه تعقيب الكلام برفع ما يتوهّم ثبوته أو نفيه فهو تعريف تقريبيّ "[١]، فقوله تعالى : ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ جملة اسمية استئنافية جاءت بياناً لسؤالٍ مقدّرٍ ناشئ عن جملة الاستثناء قبلها فكأنّه قيل: وماذا أعدّ الله لهم يوم يكون الكفار في عذابٍ أليم؟، فقال مجيباً: ﴿ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ، فالاتصال بين الجملتين قويّ فناسبه الفصل وهو ما يُسمَّى شبه كمال الاتصال يقول أبو السعود إنها : " استئنافٌ مقرِّر لما أفاده الاستثناء من انتفاء العذاب عنهم ومبين لكيفيَّته ومقارنته للثواب العظيم "[٢].

ويحتمل أن يكون الاستثناء هنا متصّلاً على أن المراد بـ ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ من أسلم من هؤلاء الكفرة المخاطبون وآمن بعد ذلك ممن سبق في قضاء الله أنهم سيؤمنون ، وعبَّر بالماضي ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ " باعتبار ما مضى أو بمعنى يؤمنون "[٣].

(١) التحرير والتنوير : ١٢ / ٢٣٥ ، واختار الزمخشري أن يكون الاستثناء هنا منقطعا . انظر الكشاف : ٤ / ٧٢٩ ،

(٢) إرشاد العقل السليم : ٩ / ١٣٤ .

(٣) حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي : ٩ / ٤٥٢ .

وفي سورة التين ذُكرت الفاء المفيدة للوصل بحرف ظاهريّ ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ ؛ لأن الاستثناء متصل من عموم الإنسان فتمّ الكلام به ، إذ لما أخبر عن الإنسان أنه رُدَّ أسفل سافلين ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ۝٥ ﴾ [سورة التين] ومعناه : " هرمه وضعفه وضعف حواسه ، وعدم قدرته على الأعمال " ، استثنى من عمومه الذين آمنوا ، فصار تقديره : إلا من كان يعمل صالحا ، فإنّا لا نقطع ثوابهم وأجورهم بسبب ضعفهم كما ورد في الحديث الشريف (إن العبد المسلم إذا مرض أو سافر كتب له من الأجر كما كان يعمل مقيماً صحيحاً)) [1] " [2] .

يقول الطاهر بن عاشور : " وليس لانقطاع الاستثناء هنا احتمال لأنَّ وجود الفاء في قوله : ﴿ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ يأباه كلّ الإباية " [3].

ويرى البقاعي أنَّه " لما تقدّم أن من حوسب عُذِّب ، وأن النّاجي إنّما يكون حسابه عرضاً ، علم أنه ليس للأعمال دخل في الحقيقة في الأجر [4] ، وإنما المدار كما قال النبي صلى الله عليه وسلم على التّغمّد بالرحمة حتى في

(١) رواه البخاري

(٢) انظر كشف المعاني في المتشابه المثاني : ٤١٧ .

(٣) التحرير والتنوير : ١٢ / ٤٢٩ .

(٤) الذي لا يكون للأعمال فيه تأثير هو دخول الجنة فهو بمحض رحمة الله وفضله ، أما الأعمال فإنها مؤثرة في تفاوت الأجر من عاملٍ إلى عامل ، ولذا يتفاوت المؤمنون ويتفاضلون في درجات الجنّة بسبب أعمالهم .

تسمية النعيم أجراً ، أسقط الفاء المؤذنة بالسبب تنبيهاً على ذلك [١] بخلاف ما في سورة التين لما يأتي من اقتضاء سياقها للفاء " [٢] .

ويمكن أن يكون إثبات الفاء وتركها جاء لتحقيق الملائمة مع سياق كلّ سورة ، فسياق سورة الانشقاق أكثره في ذكر الكافرين حيث أطال في ذكر موقفهم يوم العرض ووصف عذابهم بست آيات (١٠ – ١٥) ، ثم توبيخهم على كفرهم وتقريعهم في موقفهم من القرآن بخمس آيات (٢٠ – ٢٤) ، في حين لم يزد في الحديث عن المؤمنين عن ثلاث آيات (٧ – ٩) ولذا ترك الفاء عند الحديث عن جزاء المؤمنين مناسبة للإيجاز والاختصار ، في حين لم يذكر الكافرين في سورة التين ، ومقصودُه بقوله في سورة التين : ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ ﴾ الإنسان ، والذي قد بدأت السورة بتكريمه ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ﴾ فناسب ذلك تأكيد ديمومة ثوابه وعدم انقطاعه وعدم تكديره بالمنِّ بزيادة الفاء ، بخلاف سورة الانشقاق فقد بدأت بذكر كدح الإنسان ومشقته ونصبه ثم توعّده بركوب الأهوال والشدائد المتتالية التي يفوق

(١) البقاعي يرى أن آية الانشقاق وآية فصلت ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ۝٨ ﴾ أعري الخبر فيها من الفاء " إيذاناً بعظم الجزاء ؛ لأن سببه رحمة الرحيم ، ولو كان بالفاء لآذنت أنه على مقدار العمل الذي هو سببه " . نظم الدرر : ١٧ / ١٤٨ .

(٢) نظم الدرر : ٨ / ٣٧٥ .

بعضها بعضاً في الشِّدّة [1].

وجاء التعبير بالموصول ﴿ ٱلَّذِينَ ﴾ إرادةً للتعميم والشمول ليدخل فيه كلّ من اتصف بعنوان الصلة " الإيمان والعمل الصالح " من مؤمنٍ ومؤمنة ، كما جاء التعريف بالموصولية لأن جملة الصلة ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ تومئ إلى وجه بناء الخبر ، فمن قرأ جملة الصلة هذه وهي إيمان وعمل صالح أدرك نوع الخبر ووقف على الجزاء وعلم أنه جزاء حسن ؛ لأن الجزاء من جنس العمل ، يقول د. محمد أبو موسى : " ومثله كثير جدًّاً في كتاب الله حيث نجد المبتدأ يحمل من المعاني ما يهيء النفس إلى الخبر حتى لتكاد تعرفه قبل النطق به، وهذا لعمرك فنّ من الكلام جزل دقيق لا يهتدي إليه إلا فطنٌ محدث " [2].

واختيار التعبير بالماضي في صلة الموصول ﴿ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ لأنهم أوجدوا الإيمان واستقروا عليه ، وللحثِّ على الدخول في الإسلام والإيمان ولو على أدنى درجات التَّصديق ، ولأن الغرض مدحهم بما صدر عنهم في الماضي وذلك مما يشعر بالرغبة في الثبات عليه في المستقبل ، وفيه أيضا بشارة للمؤمنين حال النزول بأن أعمالهم الصالحة قد قُبلت ، وذلك ألصق بحالهم وأدخل في تثبيتهم .

والتعريف في ﴿ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ للجنس ، لإرادة الاستغراق ، فأفاد أن من

(١) انظر التعبير القرآني : ٣٤٥ د. فاضل السامرائي .

(٢) خصائص التراكيب : ١٩٧ .

صفات المستثنى القيام بجميع الأعمال الصالحة التي أُمروا بها بما فيها ترك السيئات.

ومع أن الأعمال الصالحة داخلة تحت مسمى الإيمان ومستكنة في طياتها؛ إذ إيمانهم باعث لهم على العمل الصالح ، فقد عطف الأعمال الصالحة ﴿ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ على الإيمان ﴿ ءَامَنُواْ ﴾ من باب عطف الخاص على العام ؛ تشريفاً لهذا الخاص ، وإيلائه مزيد عناية واهتمام وأنّه الأساس في الاتّصاف بالإيمان ، ومن هنا كثر هذا العطف في القرآن الكريم فجاء في أكثر من (٥٢) موضعاً .

وتقديم الجار والمجرور ﴿ لَهُمْ ﴾ على المبتدأ المؤخر ﴿ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ مشعرٌ بالاهتمام بهم وباختصاص هذا الأجر العظيم بالمؤمنين لا يتعدّاهم إلى غيرهم من الكفار الذين سبق ذكرهم في الآية السابقة ، ولا يشركهم فيه أحد .

وبالاستثناء يتمايز الفريقان ، ويتقرَّر الحكم تامًّاً في نفوس المخاطبين بأن الناس يوم القيامة صنفان متقابلان ، وقد أتبع كل صنف بما يناسبه ويليق به :

- صنف الكافرين وهم مبشرون بالعذاب الأليم ، وهم الكثرة الكاثرة.
- وصنف المؤمنين وهم مبشرون بأجر غير ممنون ، وهم القلة .

وهذه المقابلة في نظم الآية تجعل المخاطبين بها يفكّرون مليًّاً في هذين الصنفين المتقابلين وبإزائهما نهايتاهما الحاسمتان ، فمن منّ الله عليه بالإيمان ثبت عليه واستكثر من الأعمال الصالحة ليفوز بأجرٍ غير ممنون ، ومن ضلّ

وغوى حقّت عليه كلمة العذاب الأليم إن بقي على كفره وعناده ، وإن رجع وأقلع عنه فجزاؤهم جزاء المؤمنين .

وهذه طريقة القرآن الكريم إذ كثيرا ما يستثني الله المؤمنين الذين يعملون الصالحات من حكم سابق يكون المستثنى منه صنفٌ من أصناف السوء والضلال نحو:

- الشعراء الغاوون: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾ [سورة الشعراء] .
- الخلطاء الباغون: ﴿ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ﴾ [سورة ص : ٢٤] .
- أسفل السافلين: ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ ﴾ [سورة التين] .
- الخسران المبين: ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [سورة العصر] .

ومن تأمّل خاتمة هذه السورة يلحظ براعة خاتمتها إذ لما كان ما سبق مشاهد عظيمة تملأ النفوس رهبة وخوفاً فقد جاءت خاتمتها تحمل بشارة

عظيمة للمؤمنين بعدم انقطاع أجورهم ، وذلك مُذكِّرٌ بالسرور والفرح الذي بشَّر به رسول الله صلى الله عليه وسلَّم في قوله : " من سرَّه أن ينظر إلى يوم القيامة كأنَّه رأي عينٍ فليقرأ ﴿ إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ ﴾ و﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ ﴾ "[(١)]، وهو حاملٌ للمؤمنين على الثبات على دينهم حتى اليقين ، وانتهاء الكلام بالوعيد والوعد يؤذن بانتهاء الكلام فلا تتشوَّف معه النفس لبقاء شيء يذكر يقول السيوطي : " وقد جاءت خواتم السور مثل فواتحها في الحسن ، فتضمَّنت المعاني البديعة مع إيذان السامع بانتهاء الكلام حتى لا يبقى معه للنفوس إلى ما يُذكر بعد ، وخواتم السور القرآنيَّة تدور بين الأدعية والوصايا والفرائض والتحميد والتهليل والمواعظ، والوعد والوعيد، وغير ذلك ممَّا يناسب جوّ السورة نفسها من بدايتها إلى نهايتها " [(٢)] .

بقي أن أشير أن من مظاهر الجمال والحسن في النَّغم القرآني لآيات هذه السّورة تنوّع الفاصلة القرآنية وتغايرها ، بالتَّنقُّل من فاصلة إلى أخرى ذات إيقاع مغاير يأسر القلوب، لما يكسبه ذلك من جدَّة وطرافة مستمرة ، تجعل القرآن لا يَخْلَق على كثرة الرّدِّ، ولا يملّ القارئ له من تكراره .

ومن تأمّل في سورة الانشقاق يلحظ تميّزها بخصيصة بلاغية عظيمة هي إيجاز القِصَر، فكلماتها القليلة في غاية الإيجاز والاختصار تدلّ على معانٍ كثيرةٍ لا يمكن استقصاؤها أو الإحاطة بها، ومن تأمّل في تراثنا الإسلاميّ

(١) صحَّحه الشيخ الألبانيّ في سلسلة الأحاديث الصّحيحة : ٣ / ٦٩ – ٧٠ ، رقم " ١٠٨١ " ، كما صحّحه الشيخ أحمد شاكر في تعليقه على مسند الإمام أحمد : ٧ / ٢٠ .

(٢) الإتقان في علوم القرآن : ٢ / ١٠٧ .

العظيم من خلال كتب التَّفسير يلحظ تنوّع المعاني وكثرة التّأملات التي استنبطها علماؤنا من آي هذه السّورة ما يشير إلى عظيم بلاغتها وسموّ إعجازها، وتلك هي بلاغة القرآن التي لا تُضارع ، ولا تصل إليها بلاغة البشر.

الخاتمة

ورد الحديث عن اليوم الآخر وتفاصيل أحداثه في مواضع متعددة من القرآن الكريم بأسلوب بياني معجز، ولأهمية تعزيز هذا الجانب الإيماني في حياتنا خصَّه الله بسورٍ متعددة منها سورة الانشقاق، والتي تأتي هذه الدراسة البلاغية لتذوُّق جماليات النظم الإعجازي في آياتها الكريمات، وتلمّس الأسرار البلاغيّة واللطائف البيانيَّة فيها، مع العناية بالفروق المعنويّة الدّقيقة بين خصوصيّات التّراكيب، وربط هذه الخصوصيّات بالسياق والغرض العام الذي ورد النصّ الكريم بشأنه.

وقد قامت الدراسة على أربعة مباحث لتحليل آيات هذه السورة تحليلا يبرز أسرارها ويرشد إلى أوجه إعجازها البلاغي في مفرداتها وتراكيبها ، ويجلِّي عن جمالها المتمثل في وضوح معانيها وحسن تصويرها وانتقاء ألفاظها وخفتها وإتقان أسلوبها وإحكامه وجودة سبكه وقوة تأثيره .

فقدّم في هذه السورة الكريمة الابتداء بتصوير أهوال يوم القيامة ، وتدمير مظاهر أعظم مخلوقات الكون: "السماوات والأرض"، وكأنّ هذه الصور العظيمة تخاطب الإنسان: إذا كان هذا شأن السماوات والأرض يوم القيامة فعلى أيِّ صورةٍ تكون أيها المخلوق الضعيف ؟.

وبعد هذا التمهيد جاء الحديث عن القضية الأساسيّة في السورة وهي العرض على الله يوم القيامة، وحساب الناس على أعمالهم وما يحمله ذلك من مشاهد تملأ النفوس رهبة، متبعاً ذلك بالرّدِّ على المنكرين للبعث والجاحدين لصدق القرآن الكريم الذي أخبرهم به، ومبشِّراً لهم – إن استمرّوا في غيِّهم –

بالعذاب الأليم.

ولما كان ما سبق من عرض مشاهد الفزع الذي يحتوي الكون ، وتوالي صور العذاب للكافرين، تبعث على ذهول النفس وقلقها، جاءت خاتمة السورة بإلقاء البشرى للمؤمنين بأجرٍ غير ممنون، فكانت أحسن ما تكون الخاتمة كما هي البراعة ماثلة في استهلالها.

فهرس المصادر والمراجع

- الإتقان في علوم القرآن: السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ١٤٠٨هـ، المكتبة العصرية بيروت.
- أسرار البلاغة : عبد القاهر الجرجاني ، قرأه : محمود شاكر ، ط ١ / ١٤١٢هـ ، مطبعة المدني بجدة .
- بديع القرآن: لابن أبي الإصبع المصري ، تحقيق: د . حفني شرف ، ط ٢ / دار نهضة مصر .
- البرهان في تناسب سور القرآن : لابن الزبير الثقفي، تحقيق: د. سعيد الفلاح ، ط ١ / ١٤٢٨هـ ، دار ابن الجوزي ، الدمام .
- البرهان في متشابه القرآن : للكرماني ، تحقيق : أحمد عز الدين ، دار الوفاء ، ط ١ / ١٤١١هـ .
- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروزآبادي ، ت : عبد العليم الطحاوي ، المكتبة العلمية ، بيروت .
- تأويل مشكل القرآن : لابن قتيبة ، تحقيق السيد أحمد صقر ، ط ٣ / ١٤٠١هـ ، المكتبة العلمية بيروت .
- التبيان في أيمان القرآن : لابن قيم الجوزية ، تحقيق : عبد الله البطاطي ، ط١/ ١٤٢٩هـ ، دار عالم الفوائد بمكة المكرمة .
- التحرير والتنوير : الطاهر ابن عاشور ، دار ابن سحنون للنشر والتوزيع ، تونس .
- التعبير القرآني: د. فاضل السامرائي ، ط١/ ١٤١٨هـ ، دار عمار بالأردن .

- التصوير الفني في القرآن الكريم : سيد قطب ، دار الشروق .
- تفسير أبي السعود المسمَّى " إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ": لأبي السعود محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: د. عبد العظيم المطعني ، ط١ / ١٤٢٠هـ ، مكتبة وهبة بالقاهرة .
- تفسير الفخر الرازي " مفاتيح الغيب " : لمحمد الرازي ، ط ١ / ١٤٠١هـ، دار الفكر ، بيروت .
- تلخيص البيان في مجازات القرآن : الشريف الرضي ، تحقيق : محمد حسن ، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة .
- الجمان في تشبيهات القرآن : لابن ناقيا البغدادي ، تحقيق : محمود الشيباني ، ط ١ / ١٤٠٧هـ ، بيروت .
- حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي المسماة " عناية القاضي وكفاية الراضي " : لشهاب الدين الخفاجي ، حققه : عبد الرزاق المهدي ، ط١ / ١٤١٧هـ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- حاشية زاده على تفسير البيضاوي صححه محمد شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت.
- خلق أفعال العباد والرّدّ على الجهمية وأصحاب التعطيل : البخاري ، ط ٣ / ١٤١١هـ ، مؤسسة الرسالة بيروت .
- دراسات منهجية في علم البديع: د. الشحات أبو ستيت ، ط ١ /

١٤١٢هـ ، مطبعة الأمانة بالقاهرة .

- درة التنزيل وغرة التأويل : الخطيب الإسكافي ، دراسة وتحقيق : د. محمد آيدين ، ط ١ / ١٤٢٢هـ ، جامعة أم القرى بمكة .
- ديوان الشماخ بن ضرار الغطفاني : تحقيق د. صلاح الدين الهادي ، ط ١٩٦٨م ، دار المعارف بمصر .
- روح المعاني : الألوسي ، ط ٤ / ١٤٠٥هـ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت .
- سورة الرحمن وسور قصار : د. شوقي ضيف ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٧١م.
- شرح شافية ابن الحاجب: رضي الدين الاستراباذي ، دار الكتب العلمية، بيروت .
- الشعر الجاهلي دراسة في منازع الشعراء : د. محمد أبو موسى ، مكتبة وهبة بالقاهرة، ط١ / ١٤٢٩هـ .
- فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن : للأنصاري ، ط ١ / ١٤٠٥هـ ، دار عالم الكتب ، بيروت .
- في رحاب القرآن الكريم: د. محمد سالم محيسن ، دار الجيل ، بيروت ، ١٤٠٩هـ.
- الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل : لأبي القاسم الزمخشري ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، ط١ / ١٤١٧هـ ، دار إحياء التراث العربيّ ، بيروت .
- كشف المعاني في المتشابه المثاني: بدر الدين ابن جماعة ، تحقيق : مرزوق إبراهيم، ط ١ / ١٤٢٠هـ ، دار الشريف بالرياض .

- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر: لابن الأثير، تحقيق: د.أحمد الحوفي و د. بدوي طبانة ، ط ٢ / ١٤٠٣هـ ، دار الرفاعي بالرياض .
- مجاز القرآن: للعز بن عبد السلام ، تحقيق : محمد الحاج ، ط ١ / ١٩٩٢م ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ليبيا .
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز : لابن عطية الأندلسي ، طبع دار ابن حزم .
- مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع : لجلال الدين السيوطي ، قرأه وتممه : د. عبد المحسن العسكر ، ط١ / ١٤٢٦هـ ، مكتبة المنهاج بالرياض.
- المصباح في المعاني والبيان والبديع : بدر الدين بن مالك ، تحقيق : د. حسني يوسف ، مكتبة الآداب بالقاهرة .
- المفردات في غريب القرآن: لأبي القاسم الأصفهاني ، دار المعرفة ، بيروت .
- المقتضب: للمبرد، تحقيق: محمد عضيمة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة.
- من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم "الفاء وثمّ" : د. محمد الأمين الخضري، ط١ / ١٤١٤هـ ، مكتبة وهبة بالقاهرة .
- من بدائع النظم القرآني: د. السيد عبد الفتاح حجاب، توزيع دار الاعتصام، بمصر.
- من بلاغة القرآن : أحمد بدوي ، ١٣٧٠هـ ، دار نهضة مصر بالقاهرة .
- المكي والمدني في القرآن الكريم : د. محمد الشائع ، ط١/ ١٤١٨هـ .

- ملاك التأويل : لابن الزبير الغرناطي ، ت : سعيد الفلاح ، ط ١ / ١٤٠٣هـ، دار الغرب الإسلامي .
- النشر في القراءات العشر : لابن الجزري ، دار الكتب العلمية ، بيروت .
- نظم الدّرر في تناسب الآيات السّور : لأبي الحسن البقاعي ، تحقيق : عبد الرزاق المهدي ، دار الكتب العلمية بيروت .

فهرس الموضوعات

المقدمة ٥٥٧

خطّة البحث: ٥٦١

مدخل: أسماء السورة، مكيتها، ترتيبها في المصحف والنزول، ٥٦٢

فضلها: ٥٦٣

أغراض السورة ومقاصدها: ٥٦٦

تناسب سورة الانشقاق مع السورتين قبلها: ٥٦٧

تناسب مطلع السورة مع خاتمتها: ٥٦٨

المبحث الأوَّل: مشاهد الانقلاب الكونيّ الذي يصحب قيام السَّاعة: ... ٥٦٩

المبحث الثَّاني: أحوال النَّاس عند العرض يوم القيامة ٥٩٢

المبحث الثَّالث: الإقسام على تبدُّل أحوال الناس في الدّنيا والآخرة ٦١٢

المبحث الرابع: توبيخ المشركين على كفرهم ٦٢٣

الخاتمة ٦٤٣

فهرس المصادر والمراجع ٦٤٥

فهرس الموضوعات ٦٥٠